إيقاع مختلف

للكاتب: لخضر أحميدي

بوتوبيا للنشر والتوزيع

يوتوبيا للنشروالتوزيع

نوع العمل: **نصوص وخواطر**
اسم العمل: **إيقاع مختلف**
اسم المؤلف: **لخضر أحميدي**
الطبعة الأولى: **2019م**
التدقيق اللغوي: **زينب شروانة**
تصميم الغلاف: **محمد إسلام**
التصميم الداخلي والإخراج الفني: **عبد الرحمن نجاري بن حاج علي**
الإشراف العام: **عبد القادربعطوش**
المديرة العامة: **فتيحة دحام**
الترقيم الدولي (ISBN): **978-9931-765-31-8**
الناشر: **داريوتوبيا للنشروالتوزيع**
الهاتف/فاكس: **046300433/0657142322**
العنوان: **شارع عبد الجباربن علي بلدية عين الحديد-ولاية تيارت**
البريد الالكتروني: **yotoubia@gmail.com**

جميع الحقوق محفوظة لداريوتوبيا للنشروالتوزيع وغيرمسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلاّ بإذن من الناشر

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبرأبدا عن رأي الناشر.

ضجيج صامت...

هو ذلك الشعور المفعم بطعم الألم، ذلك الصدى الذي يغزو دواخلنا، تلك الكلمات التي لم نستطع قولها، الدّموع التي لم نقدر على ذرفها، ذلك الأنين الصّامت الذي يشبه سكينا حادّا يُقطّع شريان القلب، تلك الأفكار الغريبة التي تمزّقنا ولا نكشفها، تلك الابتسامة المزيّفة، الحرب التي نخوضها بين أنفسنا، صراع الذّات ذاك أعظم، ثم إني خشيت أن تمر أيامي الباقية فلا أجدك فيها وأكمل ماتبقّى منّي منطفئا فامتدت يدي إليك كامتداد شعاع الشمس إلى الأرض لتنيرها، ولقد اتخذتُ من منك طريقا وصرتِ أنت شمسي كتائِه في الأرض ينتظر بزوغ النور ليكمل السير ودلتني تعبيرات وجهها- بالكثير من الانفعال- القاتلة وإن لم تكن واضحة فهي حتما مختبئة، وعندما انبسطت أستار المساء وبزغ القمر وتشابكت السّحب فيما بينها ولمعت النجوم وعاد الهدوء إلى مجراه

وانبثق من داخله نداء صوت شيطاني، وبصوت مبحوح ووجه شاحب كأنه ورقة في ليالٍ خريفيّة متساقطة متكسرة، حجب الظلام عينيها، وباتت لا ترى سوى الغيظ والحقد، وكأن سحابة غطّت بصرها ولم تكد ترى شيئا، أرادت أن تصرخ لسبب ما لكن الأدهى من ذلك أين الصوت الذي يصرخ! من أين يأتي الصراخ وقد بات كل شيءٍ معتما! وكأن أحدهم طبق يداه على فيها ..

أشواق ضائعة، و أشواك أخرى خآئبة، ذاك ما ندعوه بالضجيج الصامت حين تكون في أمسّ الحاجة إلى الكلام فتصمت ويحترق داخلك..

العزلة وطن ...

العزلة وطن الأرواح التائهة، فيها النّفحة الأخيرة لأواحنا، فيها يستلقي المتعبون من أثقال الحياة، مستوطن من لا وطن له، فيها النّبض الأخير الذي لم يمت، والوميض الأخير الذي لم يغرب بعد، هناك ليل هادئ تتعاقب نسماته على قلوبنا وتتندى رائحة الزهور في نسيم الشوق، تعيش ما تعيش فتكتب ما تكتب من كلام لنفسك وللأخرين وللغرباء ولآخر نظرة للحياة، نحن نلملم ما تبقى من حروف في خفقات القلب وما يختلج النّفس أعظم من ذلك، وهاهي المدينة الفاضلة تهتز بفعل ضجيج الحرف واللغة كيف لا و الحروف ملجأ للنفوس التي أرهقتها الحياة، تحدث جلبة عظيمة في أرصفة الطرق وشوارع الليل مازالت مفتوحة تستقبل التائهين وتنادي: هنا مرادكم، هنا تستلقون من أتعابكم، هنا متعاكم فتعالوا ابتعاوا أنفسكم أيها الضّائعون، وأنادي أنا:أيا ليل أكتم أنينك فقد وصل ضوء النهار، ثم أخبرني بتعجب:

-ألم تكن تأمل دائماً أن يكون صدى الليل هادئا في داخلك، عاصفا في الخارج من أخبرك أن تتمرد أم أن القدر سيعكس أوراقه، ثم أخبرته على أرصفة الانتظار: هناك تركنا مشاعرنا مبعثرة فهل هو قادر على ترميمنا أم يتركنا جراحا..!

هذه المرة الجروح أعمق من ان تُرمَّم ...

أتسائل: ماذا لو كانت الأقلام والصفحات تنطق بلسان حالها! ما عساها تقول! ربما ستفضح مشاعرنا، ثم إنّنا نصمت في لحظة ما ليس ضعفا بل همسا واستماعا لدواخلنا بوضوح تامّ، ربما لا يطمع الإنسان بحبٍّ عظيم بقدر طمعه بأن يجد شخص يفهمه..

الأمُّ هي الحياة...

حينما كان الظلام لا يزال مخيما والصّبح لم يأذن له الليل بعد للطّلوع، كان القمر كإبزيم يشبك الأرض بالسماء عندما أفسحت السماء الطريق للشمس بالبزوغ على أوراق الزيتون ،كانت تلك المرأة تلوح بيدها هنا وهناك تمشي وتتكلم بهدوء فيه من المعاني ما يكفي لفهمها كانت كأنما اجتمعت فيها خصال الجمال فيها لو تمعنت وجهها لرأيت نور القمر أطلّ في ليلة من ليالي الربيع يداعب أوراق الشجر ..

فترى فيها معانيَ ليست من هذا العالم ولا من ذلك هي امرأة عظيمة في عين الصغير قبل الكبير راحت تشيح بفكرها سارحة في أرجاء السّماء، وفي لحظة شاجت عيناها بنظراتها الحكيمة ورمقتني بنظرة كالعصفور الذي رمقه الطير بنظرة ثم غرز مخالبه في لحمه ودمه، هكذا كانت تلك النظرة بالنسبة لي وتبعثرت منها كل كلمات قلبي المحموم .

سحر نظرة وإشراقة بسمة هزّت أركاني..

نفضت يديها نفض الأجنحة المغبّرة وكم وددت لو أخلط لهم قلبي المسكين ليشعر بفرح الحياة ولو للحظات كأنه سما بروحه فوق العالم فوق السّحاب..

ولم يخطئ الرافعي لمّا قال: حبّ الأم في التّسمية كالشّجرة تغرس من عود ضعيف ثم ما تزال الفصول وآثارها وما تزال تتمكن بجذورها وتمتدّ بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تُفنى عِداد أوراقها لياليَ وأياماً..

وأمسكت يد صغيرها بعد أن حلّت السّكينة على قلب الأم وانفجر قلبي آلاما وفرحا في ساعة واحدة في لحظة فقط لربما أقل من ذلك..!

رأيت الطفل يضحك غير الضحك الذي على وجوه الآخرين، كانت نظرتها إليه كأنها جمعت جميع ابتسامات العالم ووضعتها في ثغره، ولم تبالِ بألامها حتى وخزات الجوع في بطنها لم تُلقِ لها بالا فقط من أجل رؤية ولدها باسما..

فرأيت الطفل يراها أجمل من إشراقة الشّمس ولا يحن إلى غير طلعتها ولا يسكن إلى غير صدرها..

هي فقط من تسألك عن طعامك، وشرابك، وعن ملبسك، هي وحدها الحياة وما فيها، لا يمكن لأي كائن على وجه الأرض ان يحبَّك مثلها..

لقاء صدفة..

أحيانا ينبغي عليك أن تتابع رسم المشاهد كغريب، فالليس الحظّ يسعفك لأن تعيش حياة الكرماء، بين اللحظة والأخرى أمسك بخيوط الامل التي رسمتها لنا الحياة على جدران الذاكرة، رأيتها فما عساني أقول غير أنها كانت ذات ابتسامة أجمل من شوارع الحب تلك، وأصفى من مائها، قرّرت أن أسرق من الحياة لحظة عبور من أطياف الألم، لعلّها تنحني لنا فما استغرقت إلا بضع لحظات! وطِئت قدمي تلك المدينة الغريبة عني والغريب عنها، إلا أنها استقبلتني بالورد النّدي، سرقت فرحا من بين جدران حزني ووحدتي، تمكّنتُ من مواجهة الليل وحدي، أتعبَ الانعزال فؤادي، أما عن ذلك المشهد الذي احتواني معها فقد كانت أنفاسها دافئة وأثرها بادٍ للناظرين والسائلين انها موطن الحسن والجمال، لوّحَتْ لي من بعيد بيدها الصغيرة وكأنها أعطتني نفسا اخرى غير النفس كنت فقدتها منذ أزل بعيد، مثلما كنت أراك في أوهامي وجدتك لأنّك كنتِ أصدق من المرايا التي تُريني وجهي الآخر فحميتِني بصوتك من رهبة الحياة..

المُلفت للنظر أن عينيها كانتا حزينتين بطريقة مختلفة، لم أستطع التحديق فيهما طويلا، تجنبتُ النظر فيهما لكي لا تبكي فإنها ساعة سعادة ولحب حب ماضية، أحببت تلك المدينة رغم اكتساح اللون الأسود فيها لربما كنت أنت البنفسجية هناك! من يدري لربما كانت عيناك بوصلتي نحو الفضاء من غير أن أعرف.. يا غريبة يا أنتِ ...!

السّجينُ والقاضي ..

رأيت العجوز المفجوعة جالسة على الأرض،لم تكن رجلاها تحملانها، وعلى صدرها رضيع صامت وما هو بصامت، حياته أدركها قبل أن يفتك بك الشيب فلم يعد يبكي، تشد عليه بيديها المجعّدتين وتحدّثه: لا تخف.. لدينا مأوى، كانت تنقل إلينا هذه الشّدة والمحنة من خلال ذكرياتها، وقد انهمرت دموعها من عينيها التي عجزت عن إمساكها، فما كان علينا إلا أن ندرك أنت في كل دمعة نكبة، وفي كل شهقة حرب، قد غطت ضحياها برمال الموت، وها هو ابنها الوحيد ينحني أمام رجلها متوسلا أن لا تبكي،وشعرت بفؤاده ينكسر ثم تعتدل في جلستها وتحدّث عن راحل لم يعد بالإمكان أن يعود،وعن قاتل لم ينل عقابه، يكاد ينشقّ قلبها من الكلمات وما صمتت إلا أن قالت كلمات عجز العقل عن تصورها وفي كل كلمة ترى عينها تشعان نورا ونارا وتمطران مطرا قد أثقل السّحاب من مكان إلى آخر ..

خداها بالدموع قد تبللتا ومن شهقتها قد تتساقط عدد أيام شقائها علها تخجل، حسب الرّضيع أن أمه ستصمت بمجرد هدوئه فتبسم ونام، هنيئا على صدرها وأدفأه غليان وتوه؟ ج قلبها الحنون ما يزال قلب الأم حنونا حتى لو حطّمت الحياة فؤادها ..

أما المرأة الأخرى فما هي إلا شابّة حسنة الخلُق، جميلة الملامح ترك الحزن طباعه فيها، أنوار بريقها بادية على وجهها، وعيناها تحملان إناءً فيه مما تعرفه من إعداد الطعام لسيّدها الذي صار حاد الطبع، ولما

زاد صوته غلظة عليها، أرسل قلبها وكل عواطفها إلى عينيها، وفي مجاري دمعها قد سالت دموعها ، تبكي على قدر وفائها الذي قابلوها بالإساءة الحمقاء وحبّها للعمل الذي لا حدّ له ، ومصيبتها التي لا تكاد تخرج منها إلا وعلى كتفها قد ترسّم الحزن وتربّع، وكل نظراتها توحي بأن الحياة ليست عادلة...

وأحاط بالمرأة والعجوز طفل أصفر الوجه، ذابل العينين، شاحب الخدين، والطّفل قطعة من أمه، وزاد عليه الخجل جمالا، يبكي ويعصر عينيه ولا أدري ما الفطرة التي اكتسبها عن والده! سوى أنه وقف في ركنه الخاص كيلا تصله كلمات الضعف، فبكاؤه فيه نوع من القوة، إن الآلام تتكلم أحيانا، ولكن فقط بإحساس وكان لحديث قلبه طريق طويل لم يفصح لأحد يوما، فما كان عليه إلا أن يبكي ويصمت، فهذه قسوة الحياة، كان ضامر الوجه منكسر الصدر، من هول ما مرّ وما سيمر عليه، فتمنى الموت في لحظة ضعف لم تكن ضمن حساباته الطفولية، عيونه الحائرة تدل على كرهه للحياة برمتها حالة غير مفهومة..

بدأ يعلم الحياة برمتها في لحظة واحدة ومعنى الظلم الذي في بضع لحظات مما رأته عيناه، ألا يا حياة متى ستعدلين وتعطين كل ذي حقا حقه..!

صورت لنا مدى بشاعتك في سواد عينَيْ هذا الطّفل، ودموعه البيضاء، ولا لهب إلا من وهج القلب...

أما ذلك الرجل الذي يسمي نفسه قاضيا، فتائه في فكره، سارحٌ في عالمه الخاص، كالميت في جسد حي، وبين يديه قلم يمكنه إطلاق سراح السّجين أو زجّه في السّجن مدى العمر حسرة على ما ضاع من أيامه،

السـجين واقف وقفة كبرياء، مسـتمد قوّته من ضـعفه، وكان كلامهم فارغا بالنسـبة إليه، ولكنّه بمعنى لم يعد يرغب في الحياة سـوى أن ذلك الرضيع الذي تركه لوحده، قد أيقظ في نفسه حياة برمتها، مسك نفسه في لحظة انهيار القوة التي في داخله، ترمّمه تارة وتهوي به في عالم الحزن واليأس تارة أخرى، وتدكّه بأشد العنف إلى القاع، فيرمّم نفسه بنفسه، وهذه البلية من العذاب إذا ذاقه الإنسـان لا يجد منه مفرا، نعم أجرم السّـجين، اعترف بذلك، فما ذنب صـغاره وزوجته وأمه لما عليهم أن يُعذّبوا بهذا الفراق!

سيدي القاضي أبصر بما لم يبصروا به أو اعمِ عينيك بعد كل قضية، أهي احدى القضـايا الغامضـة التي اسـتحال حلها! أم هي حقيقة سـهلة وتصعب عليك سيدي من كل جهاتها..!

لا أيها القلب الإنسـاني، ليس هناك غموض، الأمر بين يديك ونحن في ظلام الدنيا يمكن للإنسان فعل أي شئ في لحظة غضب عارمة، لم يكن فيها إنسـانا بل وحشـا ضـارا لم يجد من يُهدأ عقله الثائر بقي في ليله حائرا، وفي نهاره سائرا هذا هو عقلنا..

قـال أحـدهم: القلـب الإنسـاني ميـدان تُقتتـل فيـه القوى الارضـيـة والسماوية..

احكم بقلبك سـيدي، نظرات الأم تعلو السـماء، الزوجة سـكنت في مكانها، والطفلان الأكبر بينهما طغاه الغضـب، وبات صـراخه مسـموعا، أما الرضـيع الذي لا يد له في هذا كله، هذا الضـعيف تدق فيه معاني الضياع، وفتح عينيه للنور وابتسم..

فترى العمر يتسـلل يوما بعد آخر ولا نشـعر به، ولكن حين نفارق من نحبهم بغتة، ندرك معنى الزمن الماضي والآتي.

ومتى فارقنا من نحبهم ضمأت الروح لهم وجف ماء العين على فراقهم..

رسالة..

قررتُ أخيرا الالتقاء بك، في نَصٌّ خالٍ من العاطفة لكي لا تبكي، فأنا لا أريد رؤيتك تضعف نفسك بالدموع، النص من تأليفي، لكنك لم تقرأ لي منذ زمن قد أخبرتني ذات مساء أن نصوصي سيئة، وقد ضحكنا معا كثيرا لأنك كنت تمزح دائما، وإني كنت أعلم أن نصوصي وكلماتي لا تصل إلى عمقك إلى مشاعرك، وأنه ماكان علي إطلاق اللؤلؤ تيمناً بضحكتك، يا أنتَ.. قد داهمتني الأسئلة حول تبريرك الذي لم أفهم منه شيئاً سوى أنه باللغة العربية، عربية ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عنك في معاجم اللغة جمعاء، وأستنجد للقائك بين نصوصي، وأنا محمّلة بالاستفهامات، و أنت محمّل بالعدم، ألم تدرك أن لك شخصا يخاف عليك من تقلبات الحياة...!

ردا على رسالتها التي فاض إحساسه فيها، واختلجت مشاعره، قال في لحظة تأمل السماء من نافذة السجن، بعد أن أكمل قراءة الرسالة أربع مرات: ليت الكلام الذي أظل عاكفاً على كتابته دون جدوى الذي لايذرفه الدمع حتى لايرهقني هكذا، الكل يرى أني بلا مشاعر، ليت الكلام يخرج مني دون عناء، مني كأن أميل برأسي ويسقط كل حرف خبأته لك يا عزيزتي، وصلتها الرسالة في صباح يوم التالي، بعدما لم تكن تدرك أنه سيكتب إليها وقالت في نفسها والدموع في عينيها قد تحجّرت:

ليتني أستطيع احتضان اليد التي كتبت هذه الحروف، من لمس قلبي بكلماته، يقول ماعجز عنه صوتي وهزلت منه كتفي، ليت بوسعي أن أخبئ صوته في صدري دون سواي، ليت الحياة تعيده لنا فنسعد بما نذوقه معا، ولا يتألم أحد، أنا الذي كنت يا عزيزتي مصمما على الحياة،

أتتذكّرين عندما كنا نحلم كثيرا! وأن نسافر إلى ما وراء الجبال، هل يمكنك تذكر أني أخبرتك ذات يوم أني سأصبح طبيبا! مالذي حدث لي الآن! أصبحت فقط أتمنى لو أخرج يوما من بين هذه الجدران، وألتقي ساعة في حديقة منزلنا، لمَ أبدو شاحباً بالحزن هكذا، مصابا بتعاسة الأمل، فقدت شغف الحياة وحلاوتها، أنا الآن مملوء بعواصفَ لا تهدأ دقيقة، أيمكنك أن تشعري بي! أعلم أني أثقل كاهلك لكنني أرتاح عندما أراسلك، أيمكنك أن لا تتوقفي عن الكتابة لي!

حين رأيتك في المحكمة يا عزيزتي، لم أكن أفكر في شيء غيرك، لقد أتت لوهلة فكرة الهرب لكنها هي من هربت مني، للمرة الأولى شعرت أنه المَهرب، رغبت بشدّه أن اختبئ بين يديك، وددتُ أن أصرخ لهم بكل انكسار ، كم انا ضعيف ومنهك، أنت تعلمين أن كبريائي منعني كنت لا أستطيع مقاومة نظرتك المشفقة لي، بل تمنيت لو تأخذي بيدي، وتنقذي ما تبقّى مني فهم لن يفهموا ما مررت به من أجلكم....

راسلته بعد انقطاع لمدة أيام، وظنّ أنهم نسوه، يا أنت..! هل تتوقع منا حقا أن ننساك وانت في الفؤاد تسكن! ، هم لن يشعروا بك، ولا أحد يشعر غير التي حملتك تسعة أشهر وربتك أربعين عاما، لن يؤثر علينا كلام قاضٍ يحمل قلما في يده انت تحمل الحياة بالنسبة لنا، أما نظرت إلى أمك كيف كانت نظراتها! أنا هادئ للغاية، يحدّث نفسه.. لكن إن أمعنت النظر في داخلي، ستجد أني أصبحت كتلة من الفوضى والكلام الذي يجتاح العمق، قد أصبحت الحروف ثقيلة، ولم يعد باستطاعتي إمساك القلم، يا له من شعور! إن الاشياء التي لم تُقل والكلام الذي أخرسته في داخلي، وما تبقى من جروح حارقة، قد باتت تؤلمني يا أنا، يمكنك أن تشعر بي أليس كذلك! أنا بحاجة إلى أن أكون أقوى ، الحياة

ليست سيئة فقط فترة وتمضي لكن لا أضممن لك مدة هذه الفترة قد تدوم سنوات، يحلّق بعينيه نحو النجوم، آه يا ليتني مثل تلك النجوم أرسلُ خيوط الأمل عبر السحاب وأنشر النور مثل القمر..

كتب لعائلته رسالة طويلة وكتب في الأير كلمات لم يكن يفهمها أحد غير التي تمسك دموعها عند قراءة الكلام.. أنت تعلمين أنك ستجدينني مجرد رجل انهار به الجسد، سأحاول أن أتماسك يوم المحاكمة الفاصلة، أنت تعلمين اني سأكون حاضرا بابتسامة طويلة كأني إنسان جيد، لكني أعلم أنك لن تصدقي ذلك، أمسكِي بيدي ولن تشعري إلا برجفة قلبي الذي غاص في أعماق الجدران وأي جدران ، إنه السجن وإنها القضبان، وإنها الليالي الحالكات، كل هذا يحدث لأني غضبت وأردت ان تكونوا سعداء، لم أسرق لأني بحاجة إلى المال؛ بل لأنكم بحاجة إليه ، أخبري أمي التي لا تقرأ أن دموعها تقتل ما تبقى مني ...

بعد أن أضع جزءا من أحزاني بين سطور الكلمات وبين جدران الاوراق، لتبتسم في اللحن الأخير وتصبح رماد، وتصبح كلماتي كالطير برفرفة ريشه يسرع قبل الغروب يسابق ريشه، قبل أن يسبقني الموت لا أدري من منا سيصمد أكثر نحن أم الحلم العابر ..!

سأكتب لك من قلبي رسالة بيضاء لا رماد فيها فردّي الجواب اذا أتتك حروفي و قولي لي بأيّ الحال أنت!

لأني حين أقرأ الجواب أراك بين طيات الأوراق، قد يعبر طيفك من هناك، وما قلبي يطاوعني فأبكي، ولا عيني تميل عن رؤية سواك، وما خوفي على جسد منهك ولكن خوفي على أن أنهار قبل أن أراكم يوما في محكمة القضاء والقدر..

هـذه حروف أخطها بقلبي، وبقـدر أنـاملي، لا تقفي على حروفي حـافيـة القدمين لأن زجاج قلبي مرمي هناك، وأخشى أن تصيبك إحداها فتجرح قدميك الناعمتين..

كلام عابر مثل السـحاب ..قد تعيش يوما أو تموت دهرا..نعم هي كلمات يمكنك اعتبارها سهام أيضا، لم ولن تخرج لهذا النور، فقد اعتادت على العتمة، والظلام يحتضـنها في بضـع أسـطر في هذا الكون، كما أني قد قطعت عهدا أن أصـنع زورقا يرمي بي حيثما شـاء، قارب ينجي ما تبقى من أحرفي، لا تقلق يا ذلك البعيد عني والقريب مني، فلن أنسـى أن أمدّ يدي وقلبي لاحتضن حزنك وبؤسك، وحتى إن تكورتُ في أرجاء نفسي، في غرفتي الضـيقة، في متاهات الروح، في عمق الذاكرة، وفي كل هذا وذاك وفي هذا العالم المجنون ، انا معك نسـابق الريح قبل السـحاب، ونلمع مثل النجم قبل القمر ليلة اكتماله، سـنكون للعصـافير ألحانا، سـأخطُّ ما بقى من حروف وأرميها لغياهب الليالي وأدفنها في أعماقي ...

يوم محاكمته الأخيرة.. عبر الأمل من نافذة الزنزانة وارتسـم على وجهه فما بقي للوجه نور ولا الظلام يأكل ما تبقى من نور ..

صـدر القاضـي حكمه بإفراج السـجين مع مبلغ قدمه القاضـي لحسـن معاملته طيلة الفترة ، سـيدي القاضـي ما بال نظراتك تبدو غارقة في الظلام ..!

لقد أبصرت يا بني كما لم أبصر من قبل ، فقد أريتني الجانب الخفي من الإنسـان ، لالا ليس هذا وفقط بل بلغت بفضلك ما بلغت، فخذ حريتك الآن وامضِ في سـبيـل حيـاتـك، وانظر ولا تعـد تلـك الاعمـال لأنهـا لن توصلك إلا لمتاهات الروح و قضبان الحياة ، قد تنقذك كلمة وتسجنك كلمة أيضا فاحرص على لسانك أشدّ الحرص ..

السجين رقم 67

زنزانة رقم 666أربعة جدران منتهية الصلاحية، نافذة صغيرة في أعلى الجدار يتسلل منها البرد، قضبان حديدية وأسلاك من حديد صدئ ، باب مهترئ مكتوب عليه بعض العبارات التي لم تكن واضحة حدّ الفهم، يجلس المسجون يتأمل ما آل إليه الحال، يسيطر الصمت على الأرجاء، كان السّجن كله هادئا وصامتا، وكأن عاصفة ستحدث!

حتى ذلك الضوء القليل المنبعث من النافذة لم يعد موجودا، لم يكن يتصوّر أن نسق الحياة كلها سينقلب إلى هذا الحال..

هذا المكان الموحش المرعب الذي يتسلّل من بين طيّاته الصراخ الهادئ والألم، إنه سجن يسوده الصمت ليلا والضجيج نهارا، الغرفة رقم 67 هادئة لا صوت فوق صوت الهدوء ، تلك ليلة وليالي السجن المميت، هاهي الآن تعلو أصوات خافتة مبهمة لا همس فيها، وكأن الخيال وجد ظالته بين جدران السجن الأبدي ، أصبح الشخص جثة الآن والخوف والرعب يلقي بظلاله على المكان ..

صاح الرجل ..لقد مات ..

أيها الحارس لقد مات ..

فليذهب إلى الجحيم لا علاقة لي ..

آمال بنيناها على الرمال فأخذتها العاصفة من بين أيدينا.. سراب كنا نعيشه..أحلام باتت شبه سكين يقطع أرجاء القلب..عصفت يد القدر ولا ماسك لما أخذه القدر ..

انتهى كل شئ.. يخاطب نفسه: يا فظاعة هذه الحياة..! شاب مات وحيدا بين جدران سجن انفرادي طريح الجسد لم يسعفوه، حتى بعد موته مازال جسده ينزف دما، روحه باتت في السماء تئن حزنا ووجعا، لست أدري كيف يفكر السجين في العالم الاخر! وهو ميت من أول خطوة خطاها في هذا المكان الموحش ، مات فقط بعد أن تلقى من الضرب ما أسقطه أرضا...

بقي السجين الآخر يحدث نفسه، والرجفة في قلبه ويده: لم يعد للحياة طعم ، وما فائدة حياته بعد كل هذه السلسلة من الطعنات والنكبات ربما موته أفضل! جاء إلى الحياة فقيرا معدما، عاش كمجهول بدون هوية ، ومات أشنع ميتة، كان يحصل على لقمة عيشه بعد عناء عظيم..

هل هذا كله بسبب فلتات اللسان وما جنته اليدان..

أم أن للقدر كلمة أخرى ..!

تلك هي الحياة التي يتنافسون عليها بأقل الأثنان، تلك هي الحياة..غربة وأحزان وأفجاع..هذه هي رحلة العمر يا رفيقي، الموت لم ينجُ منه عبد ولا ملك ...إنما القدر شأنه عجيب، يفتح أحد أبواب الحب، ليغلق في وجهك بابا آخر..الآهات تتعالى وليل بائس، وجسد خامد ، وصمت قاتل..

لم يجب عليه أحد حينما سأل، و أشاح بوجهه الغامق نحو السماء ....يشعر وكأن قطعة حادة تمزق أرجائه وتذكّر كلمة لم يلقِ لها بالا ..اتركني هنا وحدي ..

فاضت المشاعر واستيقظت أحزانه، وغاصت عواطفه في نهر من الألم، لم يكن عليه سوى أن ينفجر باكيا، فقد جمح زمام أمره،ويكبح نفسه مرارا لكن ليس هذه المرة..

شهقاته باتت مسموعة هذا الذي ادعى الصمود يوما..

الأمل.. إنه لحن بديع بهيج المسمع، من يجيد عزفه هكذا! كان الأمل بالنسبة للسجين يجعل للحياة ذوقا خاصا حتى وإن نهشت روحه،فهذا السجين يلحظ أنه من دون الأمل هذا السّجن مقبرة مصغّرة أو أكثر من ذلك..

المتشرد...

في صباح القرية التي تكاد تنعدم فيها الحياة، تشرق الشمس ببطء تتسلل من أعماق السماء، هاهي البلدة بأزقتها الضيقة القديمة فيها تتزين بعجائزها التي لم تحكِ كل قصصها للأولاد كل مساء..

و البنايات القديمة تقف في وسط الأحياء بخجل هامسة بأن شراسة الليل قد مرت من هنا بسلام، وأن الصباح يعلن ميلاد يوم جديد.

في ركن منعزل خارج البيوت يقضي شاب ليلته في كوخه الصغير، هناك كل صيف حتى منتصف الشتاء من كل عام..

الشاب من عاشقي القرى الصغيرة، رغم أنه لا يوجد في داخله معنى للاستقرار، و يفضّل أن يمضي حياته بين الشوارع، والمدن، والقرى، ليجوب أنحاء بلاده منعدمة الحياة..

بعد أن ارتشف قهوته ساخنة، وجلس على مقربة من بابه يتأمل الصباح بروعته، نظر إلى أحد المارين من هناك، وهو يسير على مقربة منه متفحّصا المكان، وسأله:

ـــ أنت تسير في شوارع القرية لتشاهد البلدة تغتسل بالندى أليس كذلك !!

.بلى، ولكن كيف علمت بهذا! فأنا لم أفصح بهذا لك، فتبسم قائلا:

ـــ لا يأتي أحد إلى هنا من أجل السياحة فقط يا رفيقي، وهل تظن أن أحدا سيأتي لأجل هذا الامر! إنه غباء.. لكنك اكتشفت أني أتيت لأجل أن أرى البلدة الصغيرة التي تغتسل بالمطر، وانهارها تجري هنا وهناك ، صمت قليلا ومشى ارتشف سامي شفة غزيرة من كوب قهوته وانصرف،

بينما بقي الآخر متسمرا بعد أن مضى عدة خطوات ليست بالطويلة من مسيره التفت إليه دون أن يمزح قائلا :

-لا تحاول أن تفتش لمَ تغتسل هذه البلدة بالندى فقد تكره العودة إليها.. وترك انطباعا عميقا في نفسه ومضى

بعيدا والندى يغمره بصمت، و قد نالت منه الدهشة كل صباح..

بدأ يفكر في استأجار بيت آخر صغير في مكان ما في هذه القرية، بعد محاولة مع سيدةِ بيت كانت تعمل في هذا المجال ـــ استأجار المنازل والغرف ـــ لكنها حادة الطبع، ويبدو أنها لا تريد أن تدخل البيت قبل أن تدفع إليها المال، اتفقا على إيجاره؛ منزا يحتوي غرفتين وأعطته المفاتيح وأخبرته أن يعيد المفتاح حين يريد الذهاب، دخل إلى البيت وجده مرتب قليل، ا يعلوه بعض الغبار فوق الأفرشة والمطبخ فيه بعض الفوضى التي يجب إصلاحها..

وهكذا مضى يومه في تعديل ذاك المنزل، وفي المساء خرج ليجلب بعض الطعام من المحلات التي بالقرب منه، قبل أن يخرج بدقيقة إذ به يسمع أحدا يطرق بابه دق باب البيت مساء أمر عاديٌّ، لكنه أهشه فهو غير معتاد على الزيارات وخاصة أنه لا يعرف أحدا في هذه القرية العتيقة، التي تمتد جذورها لحقب تاريخية مغيلة بالقدم...

هرع لفتح الباب فإذا به صاحب الكلمات الغامضة الرجل الذي لاقاه عند مدخل القرية الذي بدت كلماته غامضة وغير مفهومة، هو نفسه الذي يعرفه كل من في تلك البلدة، مع أنه لا يقطن صيفا هناك إلا أنه شخص يثير الكثير من الشكوك، فهو صامت، سارح في أفكاره لا يحدّث أحدا إلا وكانت هناك كلمات تبدو كألغاز يجب عليك التعلم مئة عام لكي تفهمها..

بكل أدب ولباقة واحترام ألقى ســـامي تحية واعتذر عن طرقه الباب في هذا الوقت ومن دون مقدمات، كان محاولا إخفاء دهشته أمامه وقال:

.ليس هناك داعي للاعتذار ، تفضل قل ما تريد!

. هذا لطف منك سيدي شكرا لك.

أشعل سامي سيجارة بعد إخراجها من علبة السجائر التي بيده وقال:

ـــ سأخرج من هذه البلدة غدا وأردت أن ألاقيك، وأحببت أن اراك قبل المغادرة.. وعلمت من العجوز أنك تقطن هنا..

ـــــ آه، شـــكرا لأنك أتيت إلي، مع أننا لم نتعرف على بعض إلا أنك تبدو غامضا.. ما السر في ذلك!

أجاب ضاحكا:

ـــ لالا، ليس هناك شئ من هذا، فأنا رجل عادي واسأل أي أحد في هذه القرية..

. آه فهمت، حسن أعتذر على وقاحتي..

ـ لا بأس، فأنت أبديت رأيك فقط، وهذا عادي بالنسبة لي، سامي يعشق هذه القرية العتيقة و يقطن في شـــوارعها بأقصـــى الأحوال حســـب ما فهمت وبعد أن أنهى سيجارته، سألته:

-وأين ستذهب يا سيد..!

رد مبتسما ..

.لا أدري إلى أين..

و لكني متأكد بأني لست ذاهبا إلى هناك؛ أين أقصد تلك القرى التي فيها الحرب والنزاعات..

وضحك صاخبا وانصرف تاركا وراءه عدة ألغاز على عتبة البيت.. لا أدري ماذا يقول له في غمرة فرحته أم في غمرة يأسه..

كنت طوال عمري أعيش في النفق، ولم يعلم أحد بذلك إلى اليوم علمت أنت بذلك لأنني كنت منيرا لظلمتهم، أجعل الذين من حولي ساطعين مثل النجوم، فلم يكترثوا لعتمتي ولظلامي، ولم يسألني أحد، هذا ما وجده في ورقة عندما رحل السيد سامي وتشتد عليه الحزن وانطبع على وجهه الألم ..

ويبدو أننا كلما نضجت أفكارنا كلما وجدنا أنفسنا منعزلين أكثر ومحاطين بكمية هائلة من الوحدة..

العنوان: براءة...

أرى نجومي أصفى من السحاب العابر، غسلها الليل بالندى، أرادتني أن أنظر إليها وأهتف لها بكلمات رقيقة، أسترق من نورها ضوءا أستأنس به في ظلمات الليل حتى يبزغ الفجر..

استودعته وتشابك الدمع بالدمع في مقلة العين، ما حسبت أن الروح تقيم العزاء في الهواء من قبل الفراق الابدي، ما عرفت السّماء تكلّم الأرض في تلك اللحظة بألفاظ ذات معاني، والمعاني لا يفهمها إلا من له قلب أو استرق السمع من بين طياتهما، نظرت إلى السماء نظرة وقالت: أتنكر في أعماقك الأشياء قبل بوحها وتظننا لا ندري! أم حسبك أننا من الجماد لا نشعر! ويحك يا هذا، ارفع رأسك عاليا وقل ما سبب كل هذا الذي أنت عليه الآن..!

لا يزال ضوء السماء موقدا كضوء كوكب ملتمع في سواد ليل غابر..

انغمست في نورهما وحدثتهما ألا في الناس أحجار غير الاحجار، و أقذار غير الأقذار هكذا هم يحملون أوزارهم وأوزار من كانوا معهم في علانية مشهودة، ألا تلاحظين يا سماء أنهم في طغيانهم وفي سكرتهم الأبدية! ترى ماهم فاعلوه يوم تشرق شمسك يا سماء من مغرب..

سُئلَ الإمَامُ أحمَد بِن حَنبل :

كَيف السَّبيل إلى السَّلامة مِن النَّاس ؟

فأجَاب :

تُعطِيهِم ولا تَأخُذ مِنهُم ،

ويؤذُونَك ولا تُؤذِيهِم ،

وتَقضي مَصالحهُم ولا تُكلفُهم بِقضَاء مَصالِحك ..

قِيل له : إنَّها صَعبةٌ يا إمام..!

قَال : وليتَك تَسلم !

بها أو تبتلع الأرض أمانتها، أيجب علينا الخجل من أعمالنا ام ان نرفع رؤوسنا لنكلمك يا سماء ...!

مابالك صامتة ، أخبريني الحقيقة كيف نسأل الحي كيف يحيا! أم هل نسأل الحي كيف يموت! ولكن هل تذكر الحي هادم لذاته وماذا أعد له! و ما زاده! وما قدرته على الرحيل!

لا تبال يا صديق ولا تعجبك قوته كالجبل الراسخ فهي لا تنفعه، ولا تغرك قوة ثبوته كالطائر الجارح في أرجاء السماء، فهناك حدود لكل هذا من دنيا وآخرة لا يتخطاه إلا ذو جناحين متحاكمين، قد اشتد كل طرف ووفى ، ثم أمطرت أو بكت إن صح التعبير ، وأردفت قائلة: لسنا نبكي عليك أيها العزيز، ما أنت إلا فتى اكتشف الحقيقة قبل ظهورها على عقولهم التي مازالت في سباتها ، مادام هناك باكٍ على ميت فالأرض دار غربة لكل من عليها، فاصنع شيئاً تؤجر عليه، هي لن تكون وطنا حنونا إلا عندما تكون بين طياتها، وهناك في ذلك الوقت قد تكون صحيفتك قد أغلقت بإحكام ولن تفتح مرة أخرى ، عندما تغلق الصحيفة إما الأزل أو الخلود ، فأبكي أيتها الأعين الإنسانية وتهيئي للبكاء التن مادمت باقية فوق الارض، ثم قالت: أترى ذلك البحر بشواطئه، بأناسه بصخوره، بحيتانه، بغموضه! الذي تنصب فيه الأحزان أنه لا لدموعكم..

لهفي يا سماء لشخص كان لنفسه العالية كالنجمة، كان يزرع مودته أينما حلّ، وفي أي أرض وطئتها قدماه ...

كان حيّا، صريح الحق، ترى صدق نيته في وجهه المشع أملا...

قلت لك: يا ســماء، لا أريد الص؛ ديق الذي يصـحبك، كما يصـحبك الشــيطان إلى المذلات، لا خير فيه إلا في معاداته أو اختلافه، ولا ذلك الرفيق الذي يتصنع المحبة فيزرع خنجره في أول استدارة لظهرك ، أنت وحدك يا سـماء تدركِين معنى هذا أو ذاك ، ولا ذلك الحبيب الذي يوهم لك أن قلبه وطن جديد، ثم يغرس أنيابه فلا هو حبيب ولا ذئب كان لفريسته حبيب...

بزغ القمر كأنه نور من الجنة خرق ستار السماء واسترقت منه النجمة ثقبا، و جعلت بريقها يلفت أنظارنا أن لصحبتكم للنير قد أنار فما أكرم صداقتكم ..!

آه، ما أكثر أقنعة الناس التي يلبســونها بكل احتراف! وما أكثر الحقائق التي ترمى خلف تلك الاقنعة البريئة من مطامع وأهداف وشهوات النفس ..!

تأملات...

في صـباح مغّيم لا وجود لأشـعة الشـمس ولا لضـوء القمر، بقايا روح متناثرة، آمال محطمة، بقايا غرقى لم يسعفهم الحظ للوصول إلى النور، كلمة طيبة مات صاحبها وبقي أثرها في النفوس الطاهرة، شعاع ضحكة طفل في البيت المجاور لم يصـل له بؤس العالم بعد ، بقايا حب في وجه فتاة لأنها روح شـبابها والأرواح الطاهرة تبقى خالدة، بقايا حياة معذبة قالوا أنها سـتزول وزالوا هم وهيا مازالت تنبض، خسـروا أمانيهم، دعيني أيتها السـحب المتراكمة أفشـي لك أسـراري الدفينة؛ إني كلما قطعت مرحلة وضعت عند محطاتها أحمالي، وعدت أستسقي من فيض دمعي، صرت هكذا لا أحمل سوى النوم في أجفاني، أنا لست من الذين يغيبون في ظلمات الدنيا، ولسـت مثل سـمكة تبتهج كلما غاصـت في أعماق البحر..

القدر هو أن تنتظر السـعادة على خيط عنكبوت، إما يجذبك إليه أو تجذبه إليك، نحاول أن نكون أقوى ببعض الحروف، والكلمات تسترسل إلى عمق رمحها، وحيث إن ولت وجهها توجد أدلة، ومن حيث أسـمع لا تسـمع إلا إقرارها، كلا يا سـحابتي، لن أفطر قلبي من أجلك وأموت، سـأتوقف عن الوهم وأمضـي كما مضـيتِ وتركتني، كان السـطر الأول لك، والثاني لهما، والثالث لي، والرابع كلمات ركيكة، أما الباقي فلا وجود للحروف بل هناك صـرخات في أوراق لم يسـعفها ويضـمدها أحد، في النفس حاجات محدودة تشـتهيها، وما بال النفس تحب ما لا يكون بين ايديها! وضعت شيئاً في قلبي وأقفلت عليه بقفل صغير، ورميت مفتاحه في أحضان البحر ...

ولو تأمل المسكين من الإنسان وتأمل قطعة الزجاج تلك، لرأى أن الفضاء الواسع كله يتجول بتلك الألوان في رأي العين بدون رأي القلب، وأنه لأفصح ما أرى، لكنهم لا يبصرون، يرون السعادة بين المال وحين يسقمون يدفعون ما لهم من درهم من أجل يوم يرونك فيها يا سحاب واقفين على أرجلهم ، فأطلعني عن سبب ذلك يا سحاب إني اتيتك سائلا..

أنت تعرف الإجابة، أنظر إلى قدمك كلهم عائدون إلى جوف الأرض فقط هناك من يلبث طويلا وهناك من يعمر قليلا ثم يرحل..

كن إنسان لا أكثر، لأنك لو حاولت الانغماس في الشر تصبح شيطانا وما بينكما إلا اختلاف الاسم، واجعل من فقرك ولؤمك وبؤسك ماءً اسقِ بهما زهرة الآخرة ، التي تنمو بأعمالنا الصالحة لا بمالهم الفاسد، لا يغرّك جمال أجسامهم ولا عطرهم المؤجج، أضئ نفسك بالذكر تلقاه عند أول خطوة في مماتك، ترفق بصبرك وبدمعك..

تحت سقف الليل ..

لا تدمع عيناك فحسب، بل إنك تغسل مقلتيك بدموعك، قلبك يرمّم شـــوارعه بأرصـــفته البالية، لم تعد تنتظر أحدا أن يطرق باب فؤادك لأنهم لن يطرقوه إلا لأجل فتقه أو زرع السم فيه، هم ليسوا ملائكة كما يظهر لك على وجوههم هم شـــياطين الإنس إن لم تكن تعلم ، اغســـل بدمعك قلبك، واترك قلبك شـــريدا في شـــوارع هذا العالم، الكل يســـأل عن حال قلبك فضـــولا ثم يرحل، فلا غريب يســـأل ولا قريب يريدك بقربه، ومن لم تعلمه الضربة الأولى إستحق الثانية...

يخطر في ذهني الآن وأنا أجلس بالقرب من ناصـــية الحلم، أن الكلام الحقيقي لم يكتب بعد، لم يخرج من العمق بعد، لم ينطق به أحد بعد...مازال يعشش داخل النفس البشرية.. حيث أنك لن تفهم ما أمر به أبدا، فتارة ضـــاحكا وحزينا، وتارة صـــامتا بدون أي لغة، فما تعبر عنه عيناه يصعب شـرحه وخطه في بضـع أوراق بالية اللون يغطيها الرمادي من كل جهة، كأنها اختارت أن أُكثِر من الوقوف على حافة عاطفتي.. لم أستطع أن ان أقف هنا حيث الارتفاع شاهق بعيد عن قعر ما يحدث في عمق الذاكرة، إني اشـــمّ رائحة غريبة تندفع نحوي من الحياة، كل شـــئ غامض، وكل ما يحدث يزداد توهجا وانطفاء، إنه التناقض الذي يربك القلب والعقل معا، يعصـــر الذاكرة عصـــرا، ثم تريد أن تفهم ما معنى العمق! إنه الأحجية الاكثر إيلاما على الإطلاق ، لا تتأمل القمر إن كنت تريد أن تكون مظلما، وأنا ببســـاطة ألوح للنجوم أن تبقى مضـــيئة لليلة أخرى، وأن لا تموت في أحضان السماء..

كل ما في الأمر أني حاولت جاهدا أن أعبّر لكم عمّا بداخلي، لكنكم لم تفهموا، بل الأمر كله أني أردت أن أريَك يا نجمتي الصـــغيرة بأني أملك

جانباً مضـيئا، وأحيانا عنيداً يشـهك، لكن لا أحد يريد رؤية الجانب المشرق منك، بل العكس تماما، لا بأس بكوني إنسانا سيّئا بلا مشاعر، أو بأي ضمير، لكني لن أؤذي أحدا، فلي نفسي ولكم أنفسكم، كل البشر يدركون أنهم لا يلبثون كثيرا على هذه الأرض، ولكنّهم يردّدون بدواخلهم: نحن نشعر بالضياع وأي ضياع! بل إن ضياع الروح أشدّ وأمرّ، لكنهم في دنيتهم غارقون، ماذا لو قررنا أن نلتقي في المتشابهات القليلة! ونتغاضى عن الاختلافات التي بيننا، هل سنعيش في راحة أم نزيد شقاءً! الله وحده يعلم،أولسنا نسبح في فلك واحد! وتحت سماء واحدة ووطن واحد! وتحت راية واحدة! هناك أرواح تدور في فضائها الواسع، فلا تصبح منا ولا منهم، بل من عالم آخر مغاير تماما لأن الروح إذا سافرت في خيالها نحن نحيط ببعضنا كالهواء الذي نتنفسه لكننا لا نفهم بعضنا، لأننا ننشغل بدنيانا أكثر من ديننا..

ماذا فعلت بنا أيها الشتاء! وما أقساك يا ليل!

إنه الرهان على البقاء مع تلك الريح الباردة التي تحدث في الخارج، يسرق الليل منك الكثير من الدهشة والاستغراب، في حين أن للخوف كلمة أخرى لمَ لا أعلم! أظنه يخشى الانزلاق في خبايا ليلي الطويل الحالك بلا قمر ولا نجوم ولاحتى سحاب عابر ، فلتكن رحيما يا ليل لانك تصيب أرواحا لا مأوى لها، تتنهد بعمق حين تدرك أن الحياة لحظة وتمضي، ولا شأن لك بمرور الأيام، بل ماذا صنعت فيها أيها الانسان! إنك تفكر بأمور دنياك وكأنك خالد فيها! وتنسى آخرتك وكأنك غير بالغها!

هكذا يحثنا الليل على التأمل، إني سأرحل يا نجمتي الصغيرة فقط عندما يأتي قطار الفجر، لا تبكي لأجلي ولا تلومي الحظ، لأنه ليس له ذنب فيما حدث، وإن يوما غدر بك الليل ولم يأتِ فاعلمي بأني كنت

وحيدا مثلك في ليالي برد الشتاء، حتى ذلك رفيقي الحزن صادقني زماناً ثم سئم مني و هجر..

هكذا أنا قلب يحمل أنينا لمن لايعرفون وجهتهم، أبوابي مفتوحة لحناجر مخنوقة بريقٍ جافٍّ، مازالت بصمات أيديهم على زجاج نوافذي، قطرات الدمع الراشحة على الصمت تبدو وهما وماهي بوهم...

كم قال أحدهم ذات يوم أن ألسنتهم لا تسكت وإن أمتنعتَ عن القيام بِأي عمل خوفًا من كلام الناس ستقضي حياتك قابعًا بين أربعة جدران، قُم بما تراه صحيحًا ودع الثرثرة لهُم، ثم في لحظة ما لم يتبقّ إلا فُتات أفكار، و فوضى عقل، وبضع كدمات في القلب تُبعثر كلامي وتخلط أحلامي بين الخيال والواقع..

فكم من فكرة كانت مطروحة على طاولتي لكن الليل انْقضَّ عليها ورمى بها خارجا ...

خلف الجدران...

شاطئ النسيان في بحر الحوادث ...

إلا أن شر الحوادث هي التي تعصف بنا ولا ندرك اي موضع تضعنا، وأي موطن نسكن فيه غير موطن الروح..!

لم يكن حزينا ولا غامضـا، كان فقط تائها في الفراغ الأبدي الذي لا حد له..هذا الفراغ الذي تحيطه الأسـئلة التي لا تنتهي ونتصـفح الأوراق التي لا نفهم محتواها، العودة إلى الغرفة نفسـها ما يؤلم، الفراغ نفسـه، الجدران نفسـها، الليل نفسـه، ورائحة السـجائر نفسـها المنبعثة من خلف الجدران لذلك الحارس..

حتى أنهم سـلبوا مني سـاعتي لكي لا أشـعر بمرور الوقت، وقلمي الأسـود أخذوه كذلك، وسكيني الصغير، خشية أن أقتل نفسي، أهناك أسوأ من هذا..!

منعني الحارس حتى من سـيجارة لأحرق بها هذا الوقت اللعين، لم نكن نفعل شيئاً سوى البقاء وحيدين بلا شيء في هذا الكم الهائل من الهدوء والفراغ والظلام آنـاء الليـل وأطراف النهـار، تحتلنـا الأفكـار من دون توقف..

كنت أغوص و أغوص إلى الأعماق، هكذا كانت الأفكار تتجسد في رأسي، وهذا بالنسـبة لي أقسـى من العذاب الجسـدي، لأن هذا الوهم يفقدك عقلك ويجعلك باردا تماما من أي مشـاعر وأي صـفة إنسـانية بل مجرد شيء، لا وجود له، كانت تلك الأسئلة والشكوك والآلام الفظيعة في رأسي تتكون من فراغ أيضـا، كيف لا وهي من كانت تجبرني على ضـرب رأسـي بالحائط حتى يغمى علي!

إنه العدم في أعلى تجلياته، أؤكد لك أن من صـمم هذه الغرفة لم يكن أبدا إنسـانا، أو لنقل إنسـانا شـيطانياً، أو ربما قاتل أرواح كثيرة، يعذّبها في هـذا الفراغ القاتل، لقـد كنت في العمل، ويُطلب مني حمل الأحجـار الثقيلة حتى تدمى يداي وسـاقاي ، بل إنه بالكاد يمكنك الوقوف وكأنك في سجن محصّنة جدرانه، لكنه لم يؤلمني مثل هذا الفراغ، لا يمكنك أن تحـدق في شـيء مهمـا كان، فقط الظلام والعتمـة وحتى تلـك الفتحـة الصغيرة التي يتسلل منها ضوء القمر أغلقوها، هنا لا يمكنني أن أصرف عني تخيلاتي البائسـة ولا أفكاري الغامضـة، وهذا ما كانوا يرغبون فيه أن أجر أفكاري لتقتلني أو تصـيبني بالهلوسـة فألفظها من دون عناء منهم، حتى أعترف بكل ما يجري في رأسي، ولم يكن ذاك سهلا عليّ، بعد مرور الليالي صـرت مقتنعا أن أعصـابي سـتنهار في هذا الفراغ، لقد مرّ الكثير من الأيام هنا في هذا الفراغ أتعلم كم .!

خمسـة أشـهر ويا سـهولة نطقها يا سـيدي! لكن لا أحد يشـعر بهذه الكلمات لأنه لا يمكنه أن يخرج عن إطار الزمان والمكان، لا أحد يمكنه تقييمها بالضـبط ربما هي كانت خمسـة أعوام لا أحد يعلم، لا أحد يستطيع أن يصف ذلك الفراغ السرمدي الذي يلفنا، ويحطمنا، ويقسو علينا بظلامه، هذه العزلة الأبدية التي لا فاصـل لها، هذا ما اسـتطاعوا فعله؛ أن يجعلوك تركض من أجل قول جملة واحدة صحيحة؛ بمعنى أرادوا تفريغك من الشعور تماما..

وفي إحدى الأمسـيات أوشـكتُ على الانهيار تماما كميت لم يدفنوه، وما إن دخل الحارس ليأتي بالطعام حتى بدأت بالصـراخ، حسـن خذني إلى التحقيق ..سأعترف، سأقول الحقيقة..

من حسن حظي أنه لم يكن يسمع شيئاً مما قلته أو تعمّد ذلك لا أحد يعلم، لقد نوّموه على فعل ذلك على كل حال، بل قتلوا كل شيء فيه حتى أصبح مجرد شخص يطيع الأوامر، في هذه اللحظة القاسية حدث شيءةلم يكن متوقعا، وبينما الجو كئيب كعادته وماطر ربما في الخارج لأن زخات ماء تسربت من بين الجدران..

لسبب ما لم نكن نعلمه تم إطلاق سراحنا بعد ما قتلونا بالتعذيب الصامت في ذاك الفراغ الأبدي، وفي منتصف الليل، لا أحد سيصدق أنهم يعفون عنك بهذه البساطة، بعدما كسروا روحك أخلوا سبيلك! وماذا بعد إن جعلتمونا نموت هنا خلف السياج، وماذا ستخسرون لو رميتمونا بوابل من الرصاص وتنتهي هذه الحياة! هكذا كانت الأسئلة تدور في رأسي طيلة سيري خلف السجن، وقفت لوقت طويل حتى تخدّرت ساقاي، بل لمدة ساعتين لم أحرك ساكنا ولمَ لا أحد يعلم، ثم إني أتذكر هذا التاريخ في الخامس والعشرين من يناير.. آه ياله من يوم!

لسبب ما كان يطعنني هذا اليوم، بعدما سرت قليلا أو كثيرا لا أعلم ، جلت بنظري على الجدران التي كنت خلفها، وعلى تلك الغرفة بالضبط التي لا يعلم أحد عنها، بل أنها ليست فوق الارض أصلا..

خواطر.. فتى

وما لبث إلا يسيرا ثم اختفى ..

وغاصت الروح في هذه النفس تفكر ماذا رأت، وكيف رأت! فإذا به القمر يمطر عني بحرا من الكلمات والخواطر، وأنا أمسك قلبي من أن يطير ويترك هذا الجسد، الكلمات تتلاحق تباعا، أسرعت إلى قلمي مسكته بعنف بعد أن وضعته في جوف الأرض لأنه كان صامتا، دونتها دون رجعة وأحصيتها دون عدد تحت القمر، تلك الصورة المشرقة التي رسمها لي السحاب الأبيض بعد أن استفاضت الروح من الكلمات، والحبر من بعد بكائه الاسود قد صدع على القلب والعين..

كانت الليالي تأتي بالسحاب ليستأنس بي، ويردفني كلمات لم أكن أفهم مبتغاها، لكنها تؤنس الروح والقلب معا، استوحيت من القمر والسحاب والنجوم أفكاري، وجمعتها في القلب مكانها أقبلت عني كالمطر في ليلة شتوية باردة كانت السماء تبكي بشدة..

رأيت شابة من نور ينتهي الوصف عند جمالها، كنت أرى الشمس من خلال وجهها شعرها كسنابل تسدلت عليه خيوط الشمس، فزادها بريقا ويتوقد في خديها ياقوت..

فإذا تأملت وجنتها رأيت الشعاع من خلالهما، وكانت حينا خفة عصفورة غردة من أعلى السماء، وكبرياؤها كبرياء طاووس، ووديعة كوداعة الحمامة المستأنسة روحها عطرة دائما تنير الكون بكلماتها..

فإذا جالستها وأثبت النظر رأيت كلها شعاع وكلها نور من الفضاء أم من السماء ..

كانت لا تبدو مثل النساء أبدا، الفرق أن حياءها زاد من عفتها، وجهها لو أحصيته لقلت يساوي مئة وخمسين قمرا مضيئا، هي الغزالة في المدى..

تضحك كالنور أحيانا، وتنفجر بكاء كالبرق حينا آخر، لا تفهم معناها أو معانيها..

انظر إليها هناك روح أخرى غير روحها ساكتة لكنها تشتعل داخلها..

ترقرق السحاب في السماء جامعا أجزائه ليكتمل في ظهر السماء، ليجعل منها بيضاء كورقة كاتب لم يفصل في أي جانب يكتب، وأي هامش يخط حروفه! فإذا بالسحاب يفور فورا ويسيل لعابا ومطرا بعد أن اسودَّ لونه، وما هي إلا لحظات بعد السواد ضحكت السماء منيرة، انتثر السحاب مخلّفا وراءه ضحكات وهمسات على القلوب..

رأيتها كالشمس طالعة على السماء فيها أواخر الليل، أول النهار، شمس الغروب في وجهها قد ارتسم، وسوادها بين جنبيها مع البياض قد اندفع، يتطاير الشعر في حبكته، إنها فن الخالق فما كان غير أن تودّع النهار وتأتي بالليل ليهمس لك عن جمالها ذات شعاع وبريقها في جوف الليل قد حل أفلا يجب علينا أن لا نترك الليل يرحل ..!

أنعخاطبه بلغة الفقهاء! أم أدب الادباء! أم غزل عشاق الليل والظلام..!

هكذا تدرك أن للجمال معاني الجمال الروحي تلتهمه الأحاسيس فإذا رأيته رأيت نورا يمشي أمامك..

أسهر على ذكرها وأنام على فقدها وفقد أيامها وأستيقظ على أمل أن التقيها فأسير معها، لا بل أركض في كل الطرقات بحثا عنها ولا أصل إليها حاولت كثيرا ، إن الظلام الذي ينيرك يا قمر ستشرق الشمس وكأنها تخشاك..

يغيب السحاب عن السماء بين الفينة والأخرى، وانا في سرحان فكري قد اشتقت إلى بياضه كأنه يجمع لي ما تبقى من ألم ويرسلها إلى مقبرة قلبي من عناصر حياته الابدية، لا هو ظاهر على سمائي فيواسيني، ولا أنا غادر به لأكون مع غيره..

رأيت في بياضه الحياة المخيفة قد انتصب في السماء، كأنه حارسا لها وهو ذلك السجين الذي قص خبره على أفكاري فما زادته إلا خجلا واختلاجا..

إن الانسان بعقله يبدع، وبيده يخرب، فلا وجود للإثنين معا في جسد، إما أن يبدع فيصوّر مشاهدا حقيقية أو يخرب ما صوره الأول خلق من مادة مزاجه...

ذكرى الأيام...

هم يجيدون العزف على الجروح وبإيقاع بديع أيضا وبمهارة تفوق خيالك، بحيث لن تجد أحدا يغرق في جروحك بل يزيد من تعذيبك فقط..

إنني من أؤلائك الذين ينتمون إلى عالمهم الخاص؛ ذلك المكان الموحش المليء بالغموض حيث لا وجود للنور، فقط الظلام سيد الارض حيث الرمادي يلغي بظلاله على الروح، قد تكون أقصى أمنياتك أن ترى السعادة للآخرين تجوب حياتهم، وتعمل جاهدا على جلبها لهم، ولو كانت قطعة من جسدك لانتزعتها وقلت: تفضلوا أيها الرفاق، فما عاد للمرء أمنيات غير التي كانت ميتة..

ثم بعد أن تهديهم جزءا منك يستغلون ما تبقى من أجزاء متناثرة غادرت تحت سماء رمادية تغرق في السواد، ثم حتى السواد يتمنون لك زواله...

تتآكل أطرافي ومرآتي بدأت تفسخ سطح سقفها حين اعترفت لها بما ينتابني من شعور غارق، صرت بعد كل هذه الليالي ظلا في ظلام دامس، هجرني الجميع حتى الشتاء الزاهر، والخريف الزائف، والصديق الودود، والعدو اللدود، رفضني الليل كجزء منه لانه اكتشف تمردي...

أمشي ناسيًا قلبي في المحطة الأخيرة عند بيت العجوز الذي نام ولم يستيقظ..

وتركت الليل خلفي بلا تفاصيل..

مستنقع من وهم مؤلم ، تنمو تلك الافكار على نحو غريب لا بد من الحقيقة أن ترسمه يوما ..

تركت عدة أجزاء هنا وهناك، علّ أحدا يمضي عابرا فتمسك يده ليعبر الليل بسلام، تركت بعضا من الضجيج ليس ببعيد لأولائك الغارقين في نوم عميق علهم يستيقظون ليدركوا أن قطار الحياة قد فاتهم أما عن ذلك الشارع الضيق ففيه عجوز تغني بصوت بليغ، فليسمعوا لها وليصفقوا، تركت جدران غرفتي المتآكلة وموقف الحافلات حيث استفردت به الريح العاصف، أما عن مقعدي الخشبي في تلك الحديقة فقد نقشت حرفي هناك عل أحدهم يتذكر أني كنت هناك يوما، مع علمي بأني شيء منسي ..وما زالت الأجزاء تتناثر خلف النوافذ وبالقرب من مقهى القرية الوحيدة التي هجرها العابرون ونسيها المتذكرون ..

وفي آخر الليل تشرع أحلامي في طقوسها الجنائزية للمرحلة الأخيرة من الحياة....

رجل خائن...

وغاصت الروح في لجة الفكر، فتمر على خياله تلك الليلة المظلمة، وصاحت الروح من قبل إذنه، لقد خدعتها ومضيت مع من لا شرف لها، ستقضي عليك أفكارك، سيؤنبك ضميرك ، لقد عادت تلك الأفكار التعيسة مرة أخرى، ويمشي بلامبالاة، إن الروح تسافر في النهار لتشرق في الليل على أحلام، يحدث نفسه: آه إذا لن أنام ليلا، وهجست نفسه وحدثته بالشر المبين، ألست مذنبا..! ألا يشعر المذنب بما ينتظره..! ألا تحدثه نفسه عن الخطر الذي هو فيه..! لالا إنه مجرد حدس لن يحدث كل هذا، مجرد أفكار وستموت كما البقية الباقية..سأدفنك يا أفكاري يوما، دخل إلى بيته ووجد أن تساؤلاته باتت حقيقة؛ قد وجد زوجته بدأت بكشف ما وراء الستار وأصبح كل شيء مرئيا، لم تكلمه قط بل رأت الشر في عينيه، وأصبح الهلع والخوف يتسللان من أعماقه، وهو يتأمل وجهها لكنه وجد اصفرارا فيه وحزنا يكاد ينفجر من كثرته..

قال بصوت هادئ تعتريه ضحكة وهمية:

. أنتِ هنا ..! بحثت عنك في أرجاء المنزل فلم أجدك..

نظرت إليه

ـــ انا هنا أيها الخائن، لمَ عدت! أما كان ينبغي أن تموت هناك عند تلك التي كنت معها! أم أنها طردتك هي الاخرى! أجب يا هذا ولا تبق صامتا!

ابتسم ابتسامة بلهاء وعلم أنه لا مفر، لقد حكم على نفسه، وتنفس الصعداء وهو يفكر في حيلة أخرى يخرج بها نفسه من مأزقها، يفكر ـوالحيرة مستحوذة على ما تبقى من مشاعرـ على أنجح طريقة تزيل هذه العقبة وتلاشي خصام القطيعة..

يردد بوضوح: لقد هدمت صريح أحلامي ببساطة، لأجل إرضاء النفس ولا النفس ترضى بالقليل، لذة الحياة غدرت بي..

كان ستيف رجلا صادقا فيما مضى أمينا وشريفا، لكن الحياة تغير النفوس في لحظة ما لا أحد يدركها، أصبح بلا مشاعر، يمضي أين تأخذه شهوة نفسه غير مبالٍ بزوجته وأولاده، حتى أنه ما عاد يمكث في بيته إلا نادرا..

كانت أفكاره تؤنبه تارة وتهرب به تارة أخرى، حتى أنه قبل أن يرتكب أي فعلةيفكر في أولاده وامرأته ويفكر في نفسه إلى أين تمضي..!!

يبدو أنه لم يتّبع طريق العقل ولا طريق القلب، بل طريق شهوة النفس وفقط، تمضي الأيام والاسرة متفككة والكل في حيرة من أمره، ذهب به حسن الظن أن زوجته سترضى عنه إن أخبرها الحقيقة، إن لم يكن من أجله فمن أجل أولاده، وهذا ما طوعت له نفسه ولكن لا شيء من ذلك حدث..

أي حياة هذه! وأي آمال تبنيها النفس لنا! يحدّث نفسه بين الصدمة والعمق، أغمض عينيه وراح يغوص في بحر الأحلام التي لم يحققها بعد رغم سهولتها، لكن النفس تجعلك في دوامة لا متناهية، بدأ يتأمل زوجته عندما كانت في العشرين من عمرها بعينيها الصافيتين، وبشعرها المنسدل على كتفيها ووجهها الناصع، وهتف على حين غرة: أيها الخائن ..أين المفر الآن، لن ينجوا مهما خطط اعترف يا ستيف وخلّص نفسك من جحيم أوهامك، فما عادت تنفعك أفكارك الشيطانية بعد الآن .. لن تنال شيئا غير حطام لنفسك ولفؤادك ..

أولى لك أن تسلم المسألة للقدر، فهو كفيل بمعالجة أعقد المشكلات يا عزيزي ستيف، لا يتحرك ويبقى صامتا كأنه ابتلع الكلام في قلبه أو مات القلب أساسا..

وكانت الافكار قد هاجت وبرت على وجهه الشاحب، تبدو فكرة سديدة من بين الأفكار التي تراوده ليلا ..لا بأس بمحاولة تطبيق واحدة منها، وبينما رمقته بنظرة خاطفة كانت تخفي ملامح الضعف في وجهها لكنها أخفقت في ذلك، فهذه طباع المرأة على كل حال من الأحوال، وغرقت عيناها في الدموع وأشاحت بوجهها وهي تشعر بالخوف آت، تعرف مما تخافه مشفقة على أولادها والغصة تحرق قلبها كانت فكرتها الأولى أن تغادر هذا البيت فورا بلا رجعة، لكنَّ شيئاً ما يمنعها من ذلك..

استمع الرجل إلى نبرة صوتها المستسلم للقدر والمفعم بالحزن والاسى، فهي مالم تتوقعه حدث ولم تستطع إشاحة وجهها بعيدا، تتمنى لو تقتلع الأرض كيانها..

شعر ستيف أنه يختنق، وتتعالى أنفاسه: أي ذنب اقترفت! وأي طريق أتخذت! ياله من شعور!

كما أن عبرات الحزن لمعت من عينيه، وكأن الدمع يوشك أن ينزل إلى أي وضع وصلت إليه، يحدث نفسه وهو جامد في مكانه:

أين مرت تلك السنوات!

وأين اختفيت يا حياة الفرح التي كنا نعيشها!

استيقظ من وهمك يا ستيف ولا تعش الأوهام ..!

ياا..يتنهد بعمق ناشدتك أن تغفري لي، غوتني نفسي.. أدرك أني أخطأت.. وأني على ذلك من النادمين.. انظري.. انظري إلي..

يكاد يغمى عليها لأنها لم تنم منذ سهرة أمس مع طفلها الصغير..

لم تتفوه بكلمة، بل زادت الحرقة في صـدرها وكأنه جحيم حل.. ليتني لم أكتشـف ذلك، نظرة واحدة من عينيها اختصرت كل الكلام الذي لم يقل له..

الخيانة كالقتل فقط القتل تموت النفس والجســد، أما الخيانة فتقتل الروح ويبقى الجســد يتحرك دون إرادة، الفؤاد المنكســر لا يمكنـك إصلاحه مهما حمل القلب من أعذار ، أوضّح لك امرا ..أيمكنك أن تصلح زجاجا كسرته إلى عدة أجزاء..!

طبعا ســتقول لا.. كذلك القلب هو كهذا الزجاج، راقب نفســك إلى أين تأخذك! هناك أفعال لا ينفعك ندمك عليها...

ثم اختفت البســمة من على ضــفاف الوجه فجأة كفجر أمســك يدي الليل ورحل...

رسائل...

يخبرها أنها النجوم، وتخبره أنه السماء فتضيئه،

أتعلمين يا صـــغيرتي! ربما أنني كنت أنتظرك هناك خلف المجرات بين طيات الظلام، لربما كنا نعيش هناك ونحن هنا مجرد لاجئين، وفي حين كنت أنتظرك قد خضـت حربا بمفهومها الواسـع، يكون كل ما أردته أن أجلس معك لربما أكون أنا من انتظرته منذ عقود مضت، لم أعد أعرف شـيئاً أيتها العزيزة، فلقد ضـاعت بنا الأماني، يمكن لنا أن نفهم بعضـنا بوضـــوح تام من دون أن ألبس معك رداء وجهي الآخر، إنك على الأقل تفهمين ما أقول بدون إطالة الشرح والتبرير...

ورأى في لحظة طيفاً بالقرب منه على كرســيه الخشــبي بالقرب من باب بيته، والشــمس لم يأذن لها الفجر بعد بالبزوغ، ولم تخرج بكامل حلتها بعد..

اقترب من الطيف لكنـه لم يلبث طويلا ولم يتفوّه بكلمـة، لكن فهم أن الأمر أبلغ من الحـديـث، ذلـك العجوز لم يعـد شـــابـا ليتغزل بخيوط الشمس وضياء القمر..

يســـتكمل العجوز كلماته الغامضـــة المبنية على خيال واقعي،إن هذا العالم ليس محطة لنا، بل إننا نعبره مجبرين على ذلك، يخاطب الطيف ويجلسـان تارة والشـروق تارة أخرى، وينظر إلى الطبيعة ويتحسـس قلبه إن مات أم مازال ينبض بالحياة! حتى تبدأ الشـمس بالطلوع فيعود كل منهما إلى طريقه لينام ما تبقى من نهار فالأطياف تستيقظ ليلا فقط..

نحو عودته مارا بطريق الميناء لم يســـرع بل تباطأ أكثر، يتأمل أمواج البحر العاتية لربما هي غاضبة..

يتسائل:

ـــ ممَّ تغضـــب يا ترى..! هل من الممكن أن تغضـــب مني! رجل عجوز بمعطف أســـود، بحذاء بالٍ، وتلك القبعة باهتة اللون والشـــكل..هذه الأسئلة لا إجابة لها هنا..

ثم قال

ـــآه.. كان ينبغي عليك أن تترك لي شـــيئًا من صـــوتك هذا المســـاء، وأنا سأحاول أن أفتش لك من أعماق الذكرى عن بقية مشاعر باتت رمادية اللون، باهتة الشكل، عميقة الشرح، لربما أستطيع شرح ما يحدث لمَ يأتيني صوتك على شكل غيمة تمطر فرحا فوق عالمي!

ســـأحدثك كيف يتحول عالمي الرمادي إلى حقول وأزهار بنفســـجية اللون ذات عطر الياســـمين، وكيف تتحول شـــوارع مدينتي إلى ميادين سلام..

روايتي المنسية...

وبينما كانت أشـعة الشـمس تغرق خلف الأفق، والجبال بارزة شـامخة ظلالها على الأرض البعيدة، كان الرجل الحزين جالسا على صخرة كبيرة في الأرض الواسـعة، ولم يكن يرى أمامه إلا الجبال وبعض من الطيور المهاجرة، وفي وسـط أحاسـيسـه سـمع صـوته ينادي في أعماقه... أظنه سـمع صـوت طفل في الثامنة من عمره يغني فرحا، وفي يديه يحمل وردا يوزّع على كل مسافر يراه أمامه، وكأنه خُلق ليوزع الورد والابتسامة..!

بعدها وضع يده على قلبه ليتحسس خطى ذاك الولد بداخله..

فبكى لأنه تفاجأ بأن ذاك الطفل الصـغير قد أضـاع نفسـه وهو يحاول إسعاد المسافرين..ضاع ولم يجد السبيل للرجوع الى ماكان عليه..

لم يبقَ سـوى عطر تلك الورود يمر تارة يلامس باطنه فيوقظ كل ألم كان قد تخدّر...

الثلاثاء في...

قررت أن ألتقي بها في أوراق مبعثرة، بين طيات حروف، تحت ظلال اللغة، وما بين الافصاح والكفاح..

مكان الأمس نفسه..

الافكار نفسها تأكل عقلي أكلا، الشمس تحبو في تثاقل وبدا عليها الشحوب وهي هابطة من أعلى السماء في الغروب، وان القمر بنصفه والحزن في تآكل، نصفه الآخر لا يختلف كثيرا عن آمالي المحطمة وأحلامي المنثورة وبقايا أجزائي المكسورة، وهل بقي لي شيء لم أكتبه غير الذكرى! وأسماء الراحلين والعابرين في محطة الذكرى والناسين!

وهل بقي لي غصة وألم غير هذا! وإن بقي فهو في الجحيم الأبدي في القاع، يرسو كما تفعل الأوحال في المياه، إني لا أبكي يا سلمى.. وآسفاه لما ضاع من أعمارنا، ماذا في ذلك إن رأيت دمعتي تنسكب في أجفاني الرمادية! هل تريهم سيُسرّون ويجدون في آحزاني غذاء لاحتقارهم وغيرتهم! أم أنهم يا سلمى سيشفقون ويمدون لك بسكين لتقتلي به نفسك! هل سيرثون وما أقبح الرثاء وكيف سيرثى لبائس الوجه هذا..!

أنا ميت بالفعل أو شبه كذلك..

حلت ساعة الواحدة يا سلمى وما بقي للّيل الكثير حتى نتجاوزه ببعض الحروف..

إنّ أقصى ما يمكنني فعله هو أن أسكب حبري على الورق لأجلك، فطيفك بجانبي كأنك تسكنين بالقرب مني، ثم إنّ أوراقي هذه ماتت من

شـدة حزنها، ومن فرط ما دونته على ظهرها، آه يا أوراقي الحبيبة صـبرا.. أراك تتلهفين وراء حرف السّين والياء..

تلك قهقات الأعداء يا سـلمى كلما سـمعتها شـعرت بأن أحدهم غرس سهمه في جسدي، أصبحت أغرق في محراب الحزن والكآبة، وأبلل أوراقي بالدموع...

أما عن باقة الورد تلك فقد ذبلت ومات عبيرها فوق المنضـدة، كما تركتها يا سلمى..

أما عن القمر فما عاد يبزغ كما كان في لياليا، لأن لا فائدة من إشـراقه بعد رحيلك، ولمَ يشرق أساسا وانت من كنت تتغزلين به دائما! وأخبرك أنك شبيهته في الطلعة والبهاء وحسن الخلق..

أما عن الليل فلا تسـألي، لأنه يوجد في أقصـى حقيقته بعد رحيلك وأنشب مخالبه كالذئب المفترس..

أما كان ينبغي لك المجيء الآن! فقد طلع الصـباح والشـمس أشـرقت والفجر حل بحلته الجديدة..

رحلة قلم...

دائما ما أسرق لحظات من الحياة لأعبر مع قلمي وأوراقي إلى ما لا نهاية.. حيث لا أحد يعلم فيما نود فعله لربما هي لحظة انعزال عن العالم أجمع، تلتقي بها بنفسك القديمة أو الجديدة لا أحد يدري ، يشد انتباهك الكثير من الحروف المتناثرة تناثر الزرع في الحصيدة فتور الزمن هذا يزعج..

أن تكتب بلا وعي طوال الساعات والليالي، أو ربما حتى تستعيد بقية حروفك المنسية، وأفكارك المرمية تستجمعها واحدة واحدة لينير الحرف طريقا جديدا لم تبلغه قبل ذلك.. حتى أن قلمك يتحرك مع أنفاسه كموج البحر في عمقه واستمراره..كلُّ مرة تجد فيها نفسك بين الحروف تحاول أن ترسم صورة جميلة عن الواقع وعنك خصوصا، ولكن لا تدري هذا السواد من أين أتى! ومن أي أرض حل سواد طويل عميق أعمق من أن يدركه عقلك! أشبه بحلم من غير مغزى واضح، أما عن تلك الصرخات المتناثرة، فلا بأس إن ضمدت جراحها ورميتها في غياهب الليل، وفقط أكرر حروفي وأطيافي لعلي أصدقها، كل ما يمكنني فعله هو خط حروف وأنا لا أدري ما الذي أريده..!

وربما قد يسعدون برحيلي أكثر من بقائي بينهم، وأنهم يكرهون أن أريهم الجانب الاسود مني بدل بياضهم المزيف..وربما ذات مساء ستخرج ريشة من أعماقي وتنبت أجنحتي، وأرفرف مساء قبل الغروب مع الغربان

وأضرب بجناحي الأرض محلقاً تاركا خلفي دمارا...

أردت أن اســـألك: ما علاقتك بالفجر ونجمات الصـــباح المتلألئة! ولم بياضك كبياض الغيوم! وما علاقتك بزخات المطر! وما بينك وبين اللون الأسود..! أخبريني ما صلتك بكل هذا..!

ضجيج قلم...

في أســوإ مراحل أيامي و ألمي وصــل بي إلى ما وصــل، وبعد تدخين علبة كاملة من السـجائر، ونفاذ كوب قهوتي المُرة في هذه الليلة الرعدية حيث لا يمكنني أن أنام بهدوء لأن السجائر نفذت بسـرعة، وعدم وجود كتاب يصــعب الأمر لمواجهة هذا الليل، خرجت مســرعا ملتحفا بما تبقى من ملابس إلى المكتبة العامة لعلي أجد ظالتي هناك، إن رائحة السـجائر تلوث أرجاء المكان، وصــلت قبل إغلاق المكتبة بدقائق، وجدت كتاباً يخفف وطأة هذا الحزن اللعين أو يصُــمت عني هذا الليل ، يا لها من أمسية حين تنادي حروف اللغة ولا تلبي النداء..!

أحاسـيس مبعثرة، أيام شـائكة، أحلام ميتة دونك أيها القلم، اسـلبيني أيتها الحروف حريتي، اجعليني مقيدا لك وبك.. ولا تبالي بشعوري..

ضــاجع أيها القلم أوراقي لعلكما تنجبان لي من الوهم ما يحيي هذا القلب الصاخب..

نادى قلمي بصوت خافت لا يكاد يسعني أن أسمعه:

.ماذا أكتب! وبأي طريقة أدوّن! أنت من اخترت هذا العالم..أنسيت..!

هل أذكّرك باليوم أم أصمت..! ثم يصمت فجأة ويصرخ بأعلى صوت مبجّج بالدموع، والحبر يتساقط على أطراف الأوراق ..

أيها الغريب..!

أتعتقد أنه يفرق الأمر بالنهاية..!؟

كونني أكتب لك شعورك أو كونك تقرأ ما أدونه..

هل يمكن لهذا الأمر البسيط أن يكون كفيلا بتغيير مجرى حياتنا يا صديق..!

أن تكون لحظة بسيطة وسط هذا التاريخ البشع..!

أن يغيّر الشيء الكثير كما تنسكب علبة الحبر على رواية لتخسف بالكثير من أحداثها ومجاريها..!

ليحاول كاتبها أن يعيد ترتيبها..

وما شعورك هذا إلا كظلال طائر جريح مكسور الجناح بحيث اتخذ صدرك ذات مساء عُشًّا يقيه شر هذا البرد وهو لن يرحل...

أحمل ما تبقى مني وبعض خيبات النهار، وأرجع عائدا إلى منزلي الذي يقع بعيدا عن المكتبة، هذه الشوارع أصبحت فارغة حتى من الكلاب المسعورة، وحيدا مع قلمي أجره تارة ويجرني تارة أخرى، على كتفي تربى القلق ..إنك لتسمع ضجيج الهدوء وصوت عقارب الساعة في يدي اليمنى يقتلني ببطء، أسير ببطء بثقل في جسدي المرهق من أعمال النهار، وبعدها أُسقط قناع السعادة جانبا، ونخط أحرفا عرجاء لا تفيد ولا تغني من جوع...

ثم تأتي رسالة من ورد تقول فيها:

"لا تبتئس، إني معك هذي يدي أمسك بها..

واسند برأسك هاهنا، و انسَ الذي قد أوجعك..

ألا يكفي ذلك!.."

ضُعت هناك...

تحت إنارة ضوء القمر الباهت المتسلل عبر النافذة التي لم يغلقها منذ عدة أيام، بينما تنساب على وجنتيه بسلاسة بضع قطرات من السعادة البراقة..

يعود القلم لكتابة مشاعره ومشاعري في آن واحد،و تعود الكلمات لتصافح قلبي الجريح..

يعود الحبر ليسيل على صفحات بيضاء أسودّت من فرط الحبر عليها.. فترتجف حين تعانقه، يرتجف بياضها ويرتجف سواد القلم..

تستنشق سواده فترتعش، يؤدي بها إلى سواد متغطرس.. إلى سواد أبدي، هكذا دوماً يكتب المستقبل بنجاح باهر السواد، يدخل كل بياض في نفق محاط بأنفاق محاطة بعذاب داخلي أليم، يجعل من قمة العذاب الجسدي قمة المتعة و عنوان الجنة الأبدي.. العذر ! لا أدري حقاً عن ماذا أكتب هنا! أو لمَ اكتب هنا! أو بمَ أفسّر هذا البؤس الناتج عن رسم ملامحي فقط! أنا أرسم ما أرى من ذلك العالم البعيد عن الأضواء، ذلك العالم الذي يمتزج بهدوء مرعب، و سواد مرعب، وعالم واقعي كل من يرى الأمور بواقعية، يرعب كل من يفيق من ثبات الأيام كل من يتحمل المسؤولية، عن كشف حقيقة العالم المأساوي. عندما أستيقظ من نومي وأرى.. كم هذا العالم جميل لكنه لم يخلق لي، حينها أدرك أنني لم أستيقظ..

عندما أستيقظ كل يوم أبدأ الغياب.. في غياب الجمال الروحي مأخوذ، سحاب فوق الضباب إلى مدن الذكريات بعد أن أكون قد وقعت على أوراق تُقرّ بأني تخليت عن كشف حقيقة الحياة المأساوية...

ضـــعت وســـط تلك الفوضـــى... أتذكّر أنني أمضـــيت وقتا أبحث عني هنـاك..لقـد رأيتني لكنني كنـت بعيـدا، وملامحي لم تبـدُ واضـــحـة، فلقـد غشى عليه دخان داكن مسودٌّ، حاولت أن أقترب مني ..فبمجرد أن أتقدّم خطوة إلي كنت أختفي شيئا فشيئا..

هه هنا عرفت أنني ضعت ولن أجدني..أنا فقط بلا أمل..

أنا فقط يائس ولن أبحث مجددا..

غدروا بك يا صديق..

كأن تسرد ما يجول في ذهنك ولا يفهمك أحد..

لا تهتم ياصـــديقي هم لا يعرفون عنكَ شـــيئاً، ولو كانوا يعرفونك حقّا للاحظوا تعبكَ ووجعك، وعن العمر الثقيل والليل الطويل، لايعرفون فهم أبداً لا يدركون ألم صوتك المخنوق، وعن آخر ورقة حزن في حياتك وإن الذاكرة ترتعد حين تتذكر أنك كنت لأحدهم حديثاً دافئاً ثم يقابلك حديثاً قاسياً للانسان نفسه، لأنك تصمت فقط ولا تشاركهم ترهاتهم يرونك سيئا وبلا مشاعر، لا أحد منهم يمكنه استيعاب أنك خُلقت هكذا فقط بلا كلام، كثير التأمل، أنت خُلقت هادئًا بلا سبب، ليس ذنبك أو ذنب أي أحد أنت صامت بلا مبرر، خُلقت منعزلا وبعيدا عنهم وعن أفكارهم صدقا يا صديق لن يفهموا أنك سعيد هكذا أيضا ولو بررت لهم ألف عام..

أنت من اخترت أنْ تعيش على هامش حياتهم، لا تعجب إذًا حين تكتشف أن كتاب ذكرياتهم يخلو حتى من ذِكر اسمك فأنت شيء عابر بالنسبة لهم فلا يغرنك حلو كلامهم، وأنظر وتأمل بعمق في جرحك، ستجد أن من تسبب به هو صديقك الذي حسبت أنه ضمادك، من رسمت عليه آمالك ومن رفعت سقف توقّعاتك به فأسقطه على أضلعك هل ما زلت تظن أنهم يفهمونك..!

غريق بلا ماء...

أجلس منفردا بين أربعة جدران أتأمل السقف ليلا، أتغذى على ما تبقى من حروف وبقايا مشاعر، وجزء قليل من النهار، وأفكر وأعبث بالقلم كثيرا فأجد نفسي بين خيارين: الغرق في الكآبة أو الغرق في الكتابة، ضحية كتابة أنا أو ضحية مشاعر، لا أحد يعلم،يستقر بداخلي اللون الرمادي لأنه يشبه النّهار وقليل من الليل فما هو أبيض ولا أسود، تتسلل من عقلي أفكار تسكن جدران قلبي.. أتعلمون ما هي! إنها الذكريات والماضي، وما تبقى من حاضر، فأجدني مغطى ببحر من شريط الذكرى وأحداثها دموع تجف في لحظة أردتها أن لا تجف،أنا غرقت منذ سنوات.. تلك الكوارث ماعادت تنسيني بؤس يومي ولا تلك الفوضى باتت ترعبني، كل شيء أصبح باهتا.. هكذا ببساطة أغرق في الليل..

حل بي الظلام من الداخل، ترعرع الذعر بروحي ، كيف لي أن أنجو..!

أنا نصف الليل صامت، ونصفه الآخر أكلّم أفكاري وبعض الفئران التي بدأت بهجر هذه الغرفة، أظنها ملت هي الأخرى مني أو لم تجد ما تسدّ به جوعها، يحق لها أن ترحل فقد زجرت من هذه الحياة، ليتك تكملين يا حروف النصف الآخر المتبقي، وتجمعين كلماتي في طيات أوراقك، و تعلمين أني رماد الآن ...

صرخة وطن...

سـرنا بعد أن انتهت الدراسـة، وسـار الأمل أمامنا نتبعه أينما حل وارتحل، نرى الأبنية كأنها ترثُ حالها، جدران محطمة، صـورة لشـهيد مات منذ أيام، إسعاف الفجر ، ثم تسأل:

ـــ متى تنتهي الحرب يا أبتي ونعيش الحياة بزهرتها! متى يتوقف وابل الرصاص والمدافع من قبل تهوي فوق رؤوسنا!

متى يا أبي ننام ليلة من دون رعب أو قلق!

أجب أبي مالي أراك مطأطئا رأسك!

ألستم أنتم من زرع فينا حب وطننا أم أنكم كنتم تكذبون!

.وصلنا إلى البيت يا ابنتي.. ادخلي فالعشاء جاهز..

ـــ حاضـر أبي ووصـمة العار في وجوههم من رأتهم لأنهم من تخلوا عن وطنهم، يحدّث نفسه:

ـــ لم يكن بأيدينا أن نترك لهم أرضـنا، ويذرف دموعه بعد أن خبأها طويلا..

نحن لم نعطهم أرضنا.. لقد اغتصبوها وأخذوها بالقوة، ستكبرين يوما وتعلمين يا قرة عيني..

وسـار بين الشّـوارع في الظلام، لا تكد ترى إلى ضـوء القمر يحاكي أفنية لم تزل فيها رائحة عطر خطيبة الجندي، و صـرخة طفل في المهد، و بكاء عجوز سرق الموت ابنها..

الليل يعيد لنا الذكريات، أخبروا الليل ان لا يأتي، أخبروه إننا مازلنا نتألم على أحبابنا، أخبروه إننا ما عدنا نطيق ضرب الرصاص، أيها الليل، لم نعد أقوياء لتحمل الضجيج يمكنك أن ترحل.. ألم يكفيك نبش ذكرياتك على أجسادنا! كيف هو شعور امرأة رأت بأم عينها ولدها يموت دفاعا عن شرفها! وقبل ذلك شرف الأرض الطاهرة، أرض باعها عرب قبل أن يحتلها صهيون..

أبي، أنظر.. لم تتأثر تلك المدينة الحمراء..

.أين يا بنيتي تلك!

.يا ابي الواقعة غرب الشمس، حتى من أصوات القنابل.. أحلامي المقيمة خلف الأفق لم تتأثر هي الاخرى رغم كل خوفي وترقبي بموتها ...

كانت ترتعد وتتساقط كأوراق الخريف اليابسة...

ثم قالت بنبرة لا تقل أسى وحزنا وألما عن الذي قبله: وأنتم يا بشر، ويا دعاة الحرية والعدالة، أين انتم يا تماثيل الأخلاق والمبادئ، تحطمي واندثري ماعدنا بحاجة إليك..

لا وجود لكم في هذا العالم البائس، اقتربت من أبيها ودققت النظر طويلا في وجهه.. ولم تجد ما تقوله رغم الذي قالته، دسّت خيبتها وصرخ الوطن وجعا مرة أخرى

قالت:

ــ أمي استقيظي ...مابك صامتة وأين هو صوتك لا أكاد أسمعه! لمَ أنت ممدة هكذا! أين صراخك وضجيجك!

أين رائحة قهوتك النقية! أين ضحكتك الباهتة! أين سرورك! وأين وجهك القمري! هل استسلمت فقط هكذا وتتركينني! لالا تقولي، لا يجب أن تستسلمي أنت قوية.. لست أنت من يستسلم بكل هذه السهولة، قومي وانفضي عليك الغبار وامسحي هذا العرق اللعين، وأعدّي لي طبقي المفضل، وسقطت دمعة من عينها.. أرجوك أمي خذي مني ما تحتاجين من جسدي خذيني كلي لن أبالي،

أمي هيا قومي إننا بحاجة إلى أن نملأ المكان زهوا وعطرا..

إننا بحاجة إلى طيبتك في زمن الذئاب، قومي لن أغضب من غضبك، ولن اتحجّج بالمرض للخروج، أرجوك قومي، كيف سأحيا وأنا أراك هكذا تستسلمين للموت يا أمي..!

هكذا وصفت الطفلة أمها لما عادت من مدرستها ويا كثرة مثل هذه الامهات التي قتلتها يد بني صهيون، عندما رأتها وهي ميتة لقد سافرت روحها إلى خالقها، عليك أن تكوني قوية يا بنيتي أقوى من الذئاب التي من حولك ، فاليد التي كانت تمسح عنك التعب قد زالت ورحلت وباتت يد الغدر أكثر الآن..

تحملي طعنات الحياة ولا تبالي..

في الظلام...

وقف دقيقة ولبث في مكانه، ثم راح يمشي بين الأشجار في حديقة الفناء، يزحف تدريجيا لكي لا يراه أحداً، توقف عن النافذة المضاءة بمصباح صغير، وبدأ قلبه يدق بعنف، وفي لحظة يصعب عليه التنفس يهدئ أعصابه.. هذا القلب لن يتوقف الآن أنا أعلم، لدي إيمان كامل ما عدت أريد أن أنتظر أكثر، سأرى من خلال النافذة ما يحدث، إن لاحظوا وجودي سيصرخوا، وسأموت وينتهي كل شيء، حسنا إنها لحظة الحسم تسلق قليلا على بضع حجرات، و على أطراف أصابع رجليه، وأصابع يديه تمسك بالقرب من النافذة يرى الكل غارقا في التفكير، وفجأة رفع رأسه ليرى كل من حوله سارحين في فكرهم كأنهم يخططون لفعل أمر ما ..ماتراه يكون..! وبدأت الأسئلة تتجول في فكره وبدأ القلق يتسرب إلى قلبه مرة أخرى، تنهّد عميقا، ورجع إلى الوراء ليخرج من تلك الحديقة نهائيا، وراح يجلس في الحديقة العامة ويلاحظ انعكاس السماء على الماء، ويتأمل الجراح التي لم تُشفَ منذ زمن، لنقل إنها لن تشفى، فمادام القلب يغلي من الداخل لن تشفى، لن يسامح من خذله أبداً، بدأت الكلمات تتشكل في صدره مصدرة أوامرها كأنها تحكم جسده قبل آلاف السنين، رميت نفسك في الظلام يا هذا..

ما بالك يا هذا تمشي بغير الذي كنت مهيّأً له!

وأي طريق أردت اختياره!

يسمع صوت أنين حزين من داخل أعماقه: إنك تمشي كالأعرج تُخطئ في المسارات، بعدما كنت ترشدهم إلى طريق الصواب، تسقط كما لو كنت هابطًا من السماء بعد ما كنت تمسك بأيديهم حين يسقطون ولا

يجدون أحدا، تبدو جريحا يا هذا، متكورًا كطير فقد أحد جناحيه ولم يسعفه أحد! تبدو كشريد يا هذا، هوّن على نفسك في هذه الأرض النائية لا يمكن لأحد أن يشعر بك، إن لم تشعر أنت بنفسك، حتى من هم أقرب إليك من نفسك، لن يرى أحد الظلام في داخلك لأنك تنير لهم الطريق ثم انقشع ذلك الصوت، وزال مصدره وهدأ قلب الرجل واستفاق من غمرته أحيانا تحيي القلب كلمة أو جملة أو حتى نظرة، العكس تميته كلمة عابرة لكنها تظل ساكنة في أرجاء القلب حتى آخر يوم في الدنيا...

في اللغة...

اللغة عاكس حقيقي لحال و تطلعأي أمة، وأي أمة تتحدث لغة قاتل رجالها الأحرار لا تنتظر منها خيرا إلا من رحم الله فؤاده، قالوا العربية سبب تخلف العرب وأنا أقول العربية ما زالت مستمرة في أمجادها، وستظل إلى أن تطلع الشمس من مغربها، سيطمسون هويتنا وليس ذلك فقط فمن يطعن في اللغة يجد ثغرة مناسبة ليطعن في الدين، سيصورون لك أوهاما حقيقية، سيلبسون ثوب الدين لينزعوا عنك ضميرك ثم تبقى مجرد جثة يتلاعبون بها كيفما شاءت عقولهم، اسأل الواقع وستجد الإجابة، حرر عقلك من فكرة أن العرب متخلفين، اسأل الفصحاء في اللغة وعن مبادئها، فالفصاحة عالم راقٍ للتدوين والتفكير، لكن هذه اللغة تظل قاصرة عن إعطاء كلمات يراد التعبير عنها عن العالم المعاصر..كما قال أحدهم ذات يوم: إن اللغة العربية بفضل التدوين نقلت الموروث الحضاري كسمة عامة عند البدو، لكنها تظل قاصرة عن منح المادة اللغوية للتعبير عن التكنولوجيا والصناعة والعلم، وبالرغم من كل ذلك لا يمكنك عزيزي أن تتخلى عن لغتك ببساطة وتسمي نفسك متحضرا ومثقفا لأنك تتكلم لغة قوم فعلوا بآبائك ما فعلوا، إن الأمة في مرحلة ما من تاريخها تلجأ دائما لإعادة بناء الماضي بغرض إحياء الحاضر وبقصد التحايل على الأشياء ، أخفوا مشاهده وأعطونا مشاهد غير التي كانت..!

أنت ستصدق أما أنا فمازالت أتمسك بلغتي حتى ولو وضع السيف في العنق..

إن اللغة العربية فى انهيار تام، أصبحت المدارس تنجب لنا مغنيين وشواذ و طاعنين في الدين بدل أن تكون المدرسة بيت علم وتعلم، إن

الـذين كانوا يختـارون نمـاذج الشـــعر ويقررون منـاهج اللغـة العربيـة بالمدارس في الابتدائية إلى أعلى مسـتوى دراسـي، بالكاد تجد فيهم واحدا يفكر بهذا الآن الكل يســعى إلى أن يأخذ أجره المادي ويمضــي، كانت الجامعة تخرج لنا محاربين أوفياء نزروا أنفســهم لنصــرة اللغة العربية وإحيائها وبثها في المشـــاعر ووالجدان ، الآن وقد قالوا إننا في زمن التطور والحضــارة انتهى بتحويل كل مدرســة إلى ســاحة ســياســية، فلم تعد المدرســة في هذا الزمن دار علم مصــفاة لا يخرج منها إلا كل من كان متمكنـاً التمكن التـام من اللغـة العربيـة، في الحقيقـة أظن وأتمنى أن يخيب ظني أنه لم تعد هناك حتى أمانة جيل طه حســين وعبد الحميد ابن باديس وغيرهم ممن نالوا شــرف تعليم اللغة، وجدية العقاد في فهم اللغة وأجيال ســبقهم من قبل ذلك ، حيث أقول والحق أقول إن الذي فرط في العربيـة كمن فرط في الـدين والهويـة القوميـة للعـالم العربي بأكمله، أين شموخ العربية نحن لم نعد نراها!

أصــبح المجتمع يفتخر بلغة مســتعمره ويجهل لغة قرآنه، أي عقل هذا وأي منطق يتقبل ذلك!

لأننا دون لغة ســليمة، لن يكون هناك فهمٌ لعقيدة إســلامية ســامحة تضـم شـتات الشـرق والعالم الإسـلامي ككتلة واحدة، نحن ومن دون العقيدة السليمة كالجسد بلا روح أو كغيمة عبرت الأرض القاحطة فلم تمطر لتحيها ولا لتميتها، وابتعـد رجـال الأزهر عن النضـــال من أجـل الحفاظ على اللغة العربية ووحدة الشرق..

كان عبـد الحميـد ابن بـاديس يحمـل على عـاتقـه تـدريس الأمـة اللغـة الصحيحة وأنشـأ لنا جيلا فهم أن اللغة هي أساس الدين وفي هذا الزمن وياحسرتاه لم يعد هناك موقف ينهض الحق ويقف لنصرة المجتمع، بل

أغلبهم ولن أقول كلهم لكي لا أخطئ في أولائك الذين لديهم شيء من اللغة يريدون زرعها في المجتمع، أصبحت النخبة المثقفة عندنا موظفين لا أكثر ولا أقل ولا هم لهم سوى التدرج الوظيفي..

في الأخير هذه هي العولمة التي أرادتها الدول الغربية، واستطاعت بأقل مجهود أن تطبقه على أمتنا النائمة، أما آن لنا ونحن أمة إسلامية أن نفتح عيوننا على كل ما يحدث أم كما قال أحدهم: إننا مصرون على أن نظل كالعرائس الخشبية المعلقة بالخيوط تحركها أصابع خفية..!

إن أقسى ما تواجهه الأمة هو أولائك الذين يحملون في يمناهم الوجه الجميل وفي شمائلهم الخناجر التي تُغرس كلما استدرت إليهم..

في الليل...

وفي الأعماق دفنت ذلك الكلام الذي صـعب علي أن أقوله وأن أبوح مع أنه يؤذي قلبي، لم أجرؤ يوماً على إخراجه وتلك الأمنيات التي ماتت في محراب الأيام لم أسـتطع أن أحققها ولا أن أخبئها فتلك الغربان تأكل ما هو جميل في داخلي، وإن بدا لك المظهر هادئا، آه وتلك الرغبات التي لطالما تمنيت حدوثها أو الحصـول على القليل منها ماتت هي الأخرى من غير أن يسـقيها أحد، وأظنها ماتت من شـدة تأملي لها ورغبتي بها، فذلك الصوت البريء الذي يحيي قلبي قد أفنى صغره في الظلام، كان يوماً بعد يوم يدفعني إلى الأعلى للمحاولة والمضـي قدما نحو اللاشـيء لقد كنت أخوض معاركا من أجله فقد كان جزءا مني مثلما أني جزء منه، والكثير الذي مات ماعادت تحييه الأماني..

وهاهو الليل قد حلّ أخيرا والنجوم مدفونة في أعماق صَـمت السـماء أذن لها الليل بالبوح وما طبقت كلامه،

تتأمل الروح في جمال الطبيعة وفي رفرفة النحل المحلق نحو بيته عائدا بغنائم عبير الزهور، أما عن الطُيور فقد سـكنت أعشـاشـها بعد أن حلقت في أحضـان السـماء وغردت حتى اسـتقر بريق صـوتها في جوف الأرض، انا تلك القرى والبيوت الهادئة في الجبال فقد سـكنت أرواحهم لهذا الليل وكيف لا وهم يعتبرونه فردا من العائلة تنغلق الورود ليلا لتنام على عبير الشمس..!

إنه الليلُ في عالم أبكم، هناك من اسـتيقظ وجعه وهناك من دس خيبته في معطفه، وراح يجول بالقصـائد على تلك التي رحلت وبقي عبيرها يجول في الأرجاء..

في مكان ما في ســكون حي فقير في هذا الظلام الدامس، هناك نافذة أضــاءت تلك الغرفة، يوجد بداخلها عجوز تنتظر حفيدها الغائب وحيدة أنت يا أماه قد جفاك النوم وماعاد يكتب إليك حفيدك، وماعادت ريشــتك ترســم ألوان الحياة، يمكنك تخيل كيف يســير في شــوارع ماوراء البحار وأما تلك الالواح المرســومة بتجاعيد يديك الطاهرتين، سيجازيك الله على صبر قد فاق حدوده منذ الأزل، تفكيرك يصــنع فنًّا يعجز عنه الفنان قد لا أقدر على وصــف ما تُحدِق فيه في تلك الرسومات ، فوحدك يمكنك البوح ما مر به حفيدك..

أنا آســف لكل تلك الأيام والليالي التي قضــيت فيها وحدتك منعزلا، إن تلك الليالي التي قضــيت فيها تتأمل عودة رجوع من رحل، وآســف لك لكنه لن يرجع لأنه غادر هذا العالم كل تلك الليالي ماعادت ترجع يا بني..

إن ذلك الفتى الذي ينفرد بشــخصــه في غرب الحي، متأملا القمر كأنه وجه محبوبته، يحتمي بنوره بعيداً عن ضــجيج العالم وصــراخه فما وجده في عزلته لم يجده في أنظار بني جنســه، تلك الأنظار العامة التي ماعادت تفهم أن الروح تنفرد بذاتها انفرادا عقليا وروحيا، لكنه تألّق وتأنق كأنه يريد اكتساح مساحة من المساحات التي تخص الأرواح التي تعبت من الحياة وملذاتها، إذا أردتم أن تفهموا ما يجري في داخله جرّبوا العبور فوق حدوده..

الكل يتفرد بذاته، ولكل حكايته، فلا تفرق بين الســاهر الطائع ولا العاصي فالكل يعيش تخيلاته وربما في مخيلته أفضل من ليل واقعه..

عندما حاول الظلام كبت ما نخفيه خشــية أن نقتله أو يقتلنا، لم تعد الأفكار تغتر بذاتها تشرق الشمس من الشرق البعيد، تستقيظ صباحاً على أمل أن تجد بعضــا من أجزائك الميتة التي نامت منذ الأزل البعيد،

هربت في صورة فجر مشرق وستعود في الليل الكاسح، هي لا تخشى على نفسها من الموت في علنا، بل جُل خوفها من الحصار في الظلام..

أنت.. يا من هربت بأملي.. كنت أحد الذي فارقوني صاحب أكبر حصيلة من البريق والجمال الذي لا حد له...

هزّ أركاني الوعي المفرط، وحملني إلى البعيد، إلى ما وراء الافق، تاركا ما تبقى مني خائبا وخائفا، ينزوي الوعي من أفكاري.. هي كلمات تقتل وجودها بعد حضور اللاوعي، قد عاد بي الزمن لهذه الحرب النفسية مع بدايات الليل وأجزاء الصباح المنسدلة على خيوط الشمس، مربكة هي الأيام لا سلطة للقلق، لا ضوء إلا للأماكن المشكوفة، حتى أنه لا شيء خلف هذه الظلال، حتى هي مسلوبةٌ هنا تنتظر يدا تنقذها، وفي النهاية تسقط من شجرة العمر ورقة، ودمعة، وابتسامة، وبعض من الخيبات، وقليل من هزائم الحياة، وتمضي الأيام مسرعة ناقصة من أعمارنا وما اعتبرنا ولا اعتمرنا، ألم يخبركم الليل أنه وقت قيامه! أمازلتم في سكرات طغيانكم تتسكعون!

أما علمتم أن الموت لا يستأذن أحدا منكم لا صغيرا ولا كبيرا!

أغرتكم الأماني أم أن لكم روح خالدة خلود الارض! أحسبتم أن الجسد لا يفنى أم علمتم من مكان ما نجهله نحن أن الارض ستأخذكم إلى عالم آخر..!

الحياة امتحان وورقتك تنتهي حين تأخذك السماء إلى أعاليها، وقلمك سيجف حينها، إن عملت خيرا استبشر، وإن عملت غير ذلك فلا تقل كنت في غفلة، بل إنك كنت تدرك وتردك ولكن غرتك الأماني، هي صحيفتك لم تغلق بعد فاعلن صفاءها و اكتب عليها شيئاً يسعدك يوم لا ظل إلا ظله تعالى..

أتعجب لقوم يدفعون ثمنا للمعاصي ولا يدركون أنهم محملون بما هو أثقل منها، كيف للزاني أن يجهر بقوله ويفتخر بمعصية! وكيف للسارق أن يقول إنه كذلك وهو ليس معصوما من الموت!

أخبروا الغافل إن الله أمهله أياما لكن ما عادت تنير الأيام ببريقها..

عمركم هذا الذي تفتخرون به لا يساوي ليلة واحدة تحت سقف الأرض . أي القبر .

كانت هناك دوما حروف تبدو كأنها في سبات عميق، تتساقط من عقلي أحياناً، وترفرف في الفضاء أحياناً أخرى، أراها حولي تحوم خلف بعضها، لم أفكر يوماً أنها ستدون هكذا..

إن الهموم لا تميت إلا لتلك القلوب التي لا تعرف كيف تستمد حياتها من روح السماء والأرض..كتبتها وأنا أتناول حروفي من أعماقي.. من وحي الروح.. من أسفل نقطة في الإنسان،أكشف معاني الروح وأنفض عن كلماتي غبار الأيام ، أتمنى لو أني وُفقت في كتابة هذا الإحساس الذي يفيض بالندى والإلهام فنترك في الحياة أثرا جميلا..

في عمق الروح...

تكتشف أنك قد غصت في الأعماق، في أعمق نقطة في النفس البشرية، لكن ما الجدوى من الغوص إذا كان الأمر مؤلما..!

تتقذافه الأمواج فيما بينها، فتارة إلى الشاطئ يحظى ببعض من التأمل، وتارة في الأعماق يرى نفسه من خلاله ، أحياناً لا يمكنك رؤية الحقائق إلا إذا كنت مكتئبا، ليس الاكتئاب مرضا أبداً، لكنه لحظة خلوة النفس وتأملات الروح، ما بين العقل والقلب علاقة وطيدة تمر من خلالهما الذكريات، كل شيء يستحضره العقل في شريط الذكرى يتألم له القلب من دون صوت، الحياة طريقان: الأول أن تهزم نفسك وتمضي في الطريق بلا أي زاد، وتتحمل المشاق وعثرات الطريق، ومن دون أي خريطة وبلا وجهة فقط تمضي، لكن في النهاية يوما ما لا أضممن لك إن كان قريبا أم بعيدا لكنه سيتحقق، حتما ستحقق مرادك وأهدافك وطموحاتك، ومشاعرك الصغيرة ستتحرك فجأة، ثق بأنك ستكون في الطريق الصحيح ،أما الثاني فطريق مبنيٌّ على آراء الاخرين، أينما حلّوا حللت معهم وأينما ساروا سرت معهم، كأنك قطعة من القطيع تسير خلفهم خوفا من الذئب، لن تصل أبداً إلى ما تخمن فيه، لأنك تمضي على أهداف الآخرين، لا يهم أي طريق ستختار في النهاية؛ إما ربح أو خسارة، وانت من ستتحمل ذلك، لا تعاتب الحياة يا رفيقي فهي تمضي كالريح المرسلة، إن شيئاً تفقهه خير من شيء لا تفهمه فتتعمق فيه، وخذ بيد من يعلمك ولا تأبى للذي في الجهل عائم، كن ناظرا متأملا ولا تصدق كل ما ترى إن الرؤيا تخدع، الفرق بين قوة العقل والقلب أن إضعاف أحدهما نقصانٌ للآخر؛ إذ أنهما مكملان لبعضهما البعض، فالعقل موضع الخطأ والصواب، والقلب موضع الحقيقة؛ فهو يظهر

للناس هيئات أفكاره ويســمون فكرته محبة والتي من خلالها يحيون و يتأملون بعضهم، وما كان للقلب غير ذلك فهو تسلط من العقل لا غير..

إنك لا ترى أحداً من الناس يســعد بحبه لأخيه كما يســعد لنفســه لأنه يجمع قلبه وعقله معا فترى في عقله طهارة وفي قلبه إيمانا ..

أما عن الحوادث التي تقع بين الناس من خلاف فإن فيها شــؤونا أخرى، يمكنك اختصارها بكلمة طغى أحدها على الآخر فأمر أحدهما أن يكون طاغيا على الآخر، لو كانت تكشــف الصــدور عما تحويه في القلوب لتجلت لعينيك الحقيق ، وأي حقيقة تلك التي يعمى عليها الناس ولا يرونها، فتُعمي أبصارهم ويقعون في سوء الظن بالآخرين..

الصــباح مظلم فيسْــطع فيه نور الشــمس ويضــيء، هكذا هي النفس البشــرية وفي أعماقها تكون مظلمة، لكنها تنير بالعلم والعلوم ، الفكر يخط لك طريقا واعدا ويخاطبك أيها الإنسان كن كما وصفوك ولا تبالِ فأنت وجه الحب وجمال الروح ..

كلام

كلام عابر مثل السحاب ...

قد تعيش يوما أو تموت دهرا..

نعم هي كلمات يمكنك اعتبارها سـهاما أيضـاً، لم ولن تخرج لهذا النور فقد اعتادت على العتمة والظلام يحتضـنها في بضـعة أسـطر في هذا الكون، كما أني قد قطعت عهدا أن أصـنع زورقا يرمي بي حيثما شـاء، قارب ينجي ما تبقى من أحرفي، لا تقلق يا ذلك البعيد عني والقريب مني فلن أنسى أن أمدّ يدي وقلبي لأحتضن حزنك وبؤسك، وحتى إن تكورت في أرجاء نفسـي في غرفتي الضـيقة، في متاهات الروح، في عمق الذاكرة، وفي كل هذا وذاك وفي هذا العالم المجنون، أنا معك نسـابق الريح قبل السحاب ونلمع مثل النجم قبل القمر ليلة اكتماله، سـنكون للعصـافير ألحانا سـأخط ما تبقى من حروف وأرميها لغياهب الليالي وأدفنها في أعماقي..

وما أصعب العجز عن فكّ الحصار المضروب حول فوضى الدواخل..!

لقاء في مدينة الحب...

حين وقفتُ أمامها ما كنت أحسب أني أحدثها بلساني، بل غصت في أعماقي كثيرا لأستنجد بحروف اللغة كاملة، قبل كل ذلك كانت شفاهي تنطق بمعاني الجمال ما أحسب أني كنت ألحظها قبل ذلك، أما عن أصابعي فراحت تعيد رسم شيء من الأفكار الغامقة ذات اللون السرمدي، قالت لي سلاما، وفي تلك اللحظة رأيت السلام على شكل نجمة في الأرض، يداها لما لوّحت من بعيد لي كنت أحسب أني أغرق بأنفاس تعكس ضياء القمر، ضمّ قلبي بقايا قطعه المنثورة هنا وهناك، كانت مثل قطعة من النور، ذاك النور العظيم..

لم تشح بعينيها عني، تشابكت أصابعنا ومشينا بتناغم للحظة نسيت أن الوقت يمضي، لا لا.. بل أوقفت الزمن لحظات، دقت الطفولة ناقوسا بروحي الضمآنة

وأطلقت العنان لأحرفي لتصف الجمال واطلقت سراح كل الكلمات المكبوتة منذ الازمان التهمت المسافات وعيناها كانت البوصلة والاتجاه والخريطة حيث كانت تعزف لحنا لم افهم صداه .. من خلال كل ذاك وذاك وبالرغم من الانطفاء الخاصل في ارجائي ايقنت بشئ واحد وهو ان اوتارها الصوتية ماضية من قرب قلبها ان لم نقل انها هناك طبعا ، أجزم لكم ان حنجرتها كانت أعذب من لحن الحياة البائسة ،فلا تفسير لذلك غير هذا يترنم صوتها ويغار مسمعي وكأنها تحدث اعماقي ، لم تمر الا بضع للحظات حتى ازداد يقيني بتأكيد آخر؛ أني لم أعد أملك من صمتي شيئا، وكأني أهدرته كله في حضورها، وحيث لم اعد أملك فن التجاهل أمام عينيها، بالرغم من عدم انتباهي لردائها الأحمر والأسود، يخيط شعرها الملفوف في آخر رأسها، أما عن ضحكتها فلا تسأل، إنه لن ينفعك

السـؤال.. هي أقوى من ليلي إذا ابتسـم، فلقد اسـتطاعت غسـل أفكاري برمتها، وحين تأملت كتفيها شـعرت أنها موضـع الراحة الذي نسـيته منذ الأزل، وانسـياب خطوط الأمل في وجنتيها لم ألاحظ ذلك إلا عندما تمعّنت وتمعّنت كثيرا، أغمض عيني تارة وأغفو على نور وجهها تارة أخرى، أسرع لمنح الجفون حرية الاستطلاع، أعلم أني سُرقت خلال وهلة من الزمن..

كانت تعبث كثيرا بكتابها الوردي، يداها مشـغولتان في مسـك الهاتف والكتاب، في حين يغازلني ذلك نسـيم العطر المنبعث منها، تشـبثت أحداقي وما مل النظر منها وكيف يمل وهي موطن الحسن والجمال! كنتُ بأحداقي أتضور كتابة فيها وبملامحها تتخذر كلماتي..

بخفة أصابعها أصبحت بقبضة يدي اليمنى، لم تقاوم شعاع الشمس لتندفع نحوي كموجه على الشـاطئ قد رمى نفسـه بنفسـه أرخت يدها الصغيرة، وأجبرت أصابعي على حمل كفها والتشـبّث بثغرات أصابعها بريئة أنت يا غريبة الأطوار ، أأحدثكم عن كبرياء قلبها العظيم! أم عن ذكائها الحاد ولكن أكثر فطنة، وليزيد جنوني أعمق من البحر والليل معا، أصبحت تؤرجح يدها عاليا وتنظر إلى شبيهتها في الصفاء ــ أقصد السماء.وتتابع المسير نحو المجهول إلى أي طريق تمضي! كانت تحسن فن الحديث بلغة وبلاغة، لا أكاد أسـتجمع قواي حتى تقضـي علي بتلك الابتسامة المشرقة؛ والتي تفجع بي الحزن، سرنا معا في مدينة الأمل، لم تسـترق النظر هذه المرة أحاول الثبات أكثر حتى ينهكها صـمتي وتسـأل عن صمتي، فأفشي ما أكنه في داخلي علها تسترق مني نظرة ثاقبة لأملأها ثرثرة، بدأ الطريق يتسع والنور يشع في كل موضع تضع فيه قدميها..

أظلّلها قليلا ولا أسمح لضوء الشمس أن يسرق ابتسامتها مني، كنت بخيلا في جعلها عرضة للضوء أخاف أن يراها الرصيف..كنت يومها مصابا بالدهشة..!

في مكان ما هناك شخص يمكنه احتوائك في صدره بعيدا عن هذا العالم...

إن لغة تلك العينين التي لم أعهدها من قبل ابدا، وقدرتي على قراءة أصابعها وفراغات يديها من حسن الجمال، وروعة الخالق فيها وتمتمة شفاهها ماهي إلا لغة لم أعهد قراءتها وكأنها كُتبت منذ آلاف الأعوام، ولا أنسى هذا اليوم لأنه بمثل يوم ميلادي، إلا أني في تلك الساعتين من لقياها نسيت مهارة الاستدراك والتذكر والرجوع إلى الماضي، وكأن لها قدرة ولغة جديدة حين حركت أصابعها نحو الشرق لتشير إلى سائق السيارة بالتوقف، وقالت: صدقني لم أعهد الثرثرة والصراخ بهذا الشكل، يعلو أحداقي و يمر بشاطئ الذكرى بشهية سماوية من فوق حاجبيها، تحديقكُ وتلك الإغماضة تشبه نبض القلب..من شدة جمالها أضعت حروفي، وتلك القافية التي لطالما تغنيت بها ونسيت من أنا كما ينسى الشاعر مطلع قصيدته العذراء..

وأخبرتها أن تكون الشمس التي تشرق على وجهي كل صباح، وأن تصبح القمر الذي ينير كل مساء، قالت: وهل ستحتمل ضجري وتنصت إلى صمتي!

فقلت إن لم أفعل فلا تستحقي يدي مع يدك..

صرحت لها بأن تكون لي النهار البارد في الشتاء أشجار جنتي الخضراء، قالت :

-أستسامح شخصي على خطي المائل وحروف عطفي القاتلة! و بؤس الرسائل وسوء الخط! وضعف الحروف وهشاشة الكلمات والمعاني!
قلت:

.نعم، وسأكون لك من الشاكرين بشكل أفضل أيتها الجميلة..!

وأنتِ، هل تختبئين معي في ظلال الليل وبين ثنايا القمر! وبين طبقات القبو في منزلي المظلم، بعيداً عن هذا العالم..!

ـــ لست معتادة على الظلام يا سيدي، لكن يمكنك أن تشعل الشموع أليس كذلك..!

تضحك الآن وفي بسمتها شيء من النور يشرق في داخلي كما تشرق الشمس كل صباح ولا تغيب، كما لو أن زهرة ولدت الآن، كما لو أن شلالا ساخنا تدفق بين ثنايا الوديان..

ثم قلت بعد صمت طويل:

ـــ هل يُمكنني أن أنظُر إلى عينيك حتى يقل بؤسي وإحباطي! وترحل هزائمي، وتقل خيباتي، ويختفي هذا الظلام بداخلي..!

ـــ إنني ورغم كل هذا العبث، وهذه الخيبات وما بقي خذلان لم أرد منك شيئاً سوى أمر واحد، لا تفلت يديَّ إني اعتبرك موطنا..

مغامرات طفل صغير...

يروى في مكان ما بعي، كانت هناك قرية صـغيرة تكاد تخلو من الحياة، يوجد طفل صغير لم يبلغ العاشرة بعد

حيث أن أفكاره أكبر من عمره بأعوام، إن سـره يكمن في قوة ملاحظته، يعيش في علمه الوهمي ويصـنع خيالات تشـبه الواقع ، حيث لا أحد يمكنه فهمه سـوى تلك الأشـياء الخيالية، يتحمل متاعب يومه وواقعه المميت..

يمشـي بين خيالاته ويحلّق على ظهر طير كبير مرفوف الجناحين يصـارع الوحوش الكبيرة، يريد أن يكون أميرا للقصـر الكبير، هذه هي حكاية الصـغير، ففي كل ليلة مغامرة مع الوحوش ..أين كان هذا الصـغير يبدو تائها بين البشـر وكأنه خلق من نجم عظيم يرى البشـر غرباء عنه، إلا أنه يستأنس بعصفوره الصغير، وبالنسبة له هو أجمل مخلوق قد رآه على وجه الأرض، ويخاطبه:

ــ أتكون صديقي حين يتركني البشر! فهم دائمو الرحيل، ومتعودون على تغيير وجوههم، نظر لملامحه الجميلة والبريئة وقال: لا تنزعج هذه طبيعتهم وهذا حالهم فلا تبتئس، وانظر إلى جناحي سـأغطيك وأخفيك عنهم...

مرت الأيام وطفلنا لا يشعر بالوحدة مع رفيقه إن حيث خاطبه: استمع يا عصـفوري، أنا لا أبكي أبداً، وما تراه في عينيَّ من دمع مجرد قطرات ماء سـتزول لما تشـرق الشـمس الحارقة، لا تكترث يا صـديق لنكمل قصتنا ..

توق. ف العصفور عن الطيران، وراح يحدّق في أعالي السماء، شعر فتانا أن العصفور ليس بخير، ويشعر بخفقان في قلبه الصغير، أتى مسرعا ليقترب منه ويسأل عن حاله، فحلق وأخذ يرفرف بجناحيه عاليا أمامه، ويتمايل في أرجاء السحاب، وكأنه لا يكترث بألمه ولم يكن يضع رأسه لينظر الى الأرض بتاتا..

ولم يفكر الطفل الصغير في شيء سوى في عصفوره وأخذ يكمل طريقه نحو بيته القديم، المهترئة جدرانه المبنية منذ عهد الرومان..

يتحدث إلى عصفوره كما يفعل دوماً، لكنه أصبح متوحدا بسبب سخرية أبناء القرية له وراح يشكو لعصفوره، وأخذ يحدثه عن يومه، وهو يغرّد لحنا حزينا مختلفا تماما عن ما هو متعود عليه..

ويخبره عن السماء التي يحبها وأنه يحلم بأن يكون له جناحان يرفرف بهما نحو الفضاء، فلا يقيده شيء..

يحاول العصفور أن يتبين له أنه غير مبالٍ وغير منصت له..

ولكنه من دون شعور وجده على كتفه يتأمل وجهه الصغير وبراءته، كان يمشي ببطء، وبجواره رفيقه يحمل محفظته السوداء على ظهره التي تكاد تسقطه أرضا بسبب ثقلها، لأن في قريته مدرسة واحدة وبعيدة جدا، يذهب إليها ماشيا، يتحدث للعصفور عن خيالاته العميقة ومغامراته مع النجوم ..

مرت الأيام وعصفورنا الأسود يمضي أجمل أوقاته مع الفتى، هو لا يدري أين يذهب أو في أي طريق سيمضي ولكنه يتبعه أينما ارتحل، ولاحظ العصفور أمرا غريبا على الطفل الصغير فقد كان يخبئ وجهه..

في ذلك الصباح الباهت، عينه تبدو منتفخة وزرقاء اللون وكان آثر الدم باديا على ثيابه، نظر إليه وبدأ بالتأمل في الفتى الصغير، وهو يمشي بلا دون كلام، مبللا بالدم، قال:

لا تسأل يا عصفوري، فقد نلت قسطا من الضرب البارحة، هذا كل ما في الأمر، ولكنه لم يكن سهلا أن أتحمل كل هذا، طبعا أيها الفتى فطبعك أعرفه، كان عليك أن ترد الصاع يا صاح حقا من أخبرك أني قوي!

انا ضعيف وكلمة أخرى سأكون خارج ذلك البيت أيها الصغير الأسود ، بالرغم من أنه تعلق بالعصفور أكثر وأمره والده بأن يرميه خارجا وإلا سيقتله، أتت الظهيرة وفتانا عائد من مدرسته بين شوارع القرية يجول بخاطره إلى تلك المناظر وإلى أولائك الأطفال، وهناك كان العصفور ينتظر حينما رأى الطفل عصفوره لوّح له من بعيد والصغير يمشي كعادته ينظر إلى السماء...

وفي ذلك المساء وهما عائدين إلى بيته شعر الطفل الصغير بعصفوره قد حلق بعيدا عن الأرض، وشعر بضيق شديد في صدره، توقف برهة والتفت ناظرا إليه ولم يجده، وفي لحظة وجد قطة صغيرة سوداء اللون تمشي خلفه ظنّت القطة أنه سيكون مثل باقي الأولاد سيحمل الحصى والحجارة ويبدأ بضربها أو يخاف من لونها كما هي معتادة..

ولكنه لوّح بيده لها أن تتقدم نحوه، وأتت مسرعة وابتسم ابتسامة مغرية وأعطاها بعض الخبز الذي يحمله معه في حقيبته، ثم أخذ يكمل طريقه، تستغرب القطة الصغيرة ذلك، لمَ يفعل الطفل كل هذا ولمَ هو مختلف هكذا! ولكنها مغرورة جدا لم تكترث له وراحت تتبعه حتى بيت بابه ويتأمل فوق رأسه يجد أن عصفوره قد أتى باكرا للبيت، وهو ينتظر

تحسَّس أن القطة تبعته وأدخلها خلسة إلى بيته وأمرها أن تكون هادئة لكي لا يطردها من البيت وهكذا أصبح له صديقان..

يحدث نفسه في هذا الليل المظلم المخيف: لا ضوء قمر ولا نجوم، ثم إنني توقفت عن الكتابة وعن الوهم، لا أدري لماذا، ففي النهاية لم تغنِ هذه الحروف من جوعي شيئاً، سأكتفي بمشاهدة النهاية تحل على عالمي، ثم يجد نفسه منغمسا في فكرة أخرى بين الحقيقة والوهم، ها أنا أعود من جديد، وعدلت عن فكرة الاعتزال لأنه لا وقت للاعتزال، يحاور قطته: أنترك العالم ونسافر مع النجوم ونعبر شواطئ الأحمر، ونقضي الشتاء في سبيريا!

آه ونعيش الربيع في هولندا حيث الربيع يلقي الضوء على الأرض.. أكتب كل هذا وأكتفي بالأحلام يا قطتي ويا عصفوري مالي لا أراك هنا! أم أنك تعلم أنه يمكنك تحقيق كل هذا، أما انا فلا يمكنني حتى تجاوز هذا الليل وهذا الجدار! وكأنه حُكم علي بالمؤبد هنا كتبت عن كل شيء.. ماذا ايضا !..

لا يمكنني أن أفعل شيئاً غير رسم الخيال، يا قطتي ما رأيك أن أكتب عنك! تموء قطتنا الصغيرة وكأنها توافق على ذلك، في الحقيقة أن حروفي تهرب مني لا أدري متى سترجع لكنها حتما ستعود فلا ملجأ لها إلا صدري...

أعتقد أنه علينا أن نتماسك لهذا الليل، ونعبر عن غضبنا عنه لأنه لا يرحم نفوسنا، ما رأيك يا عصفوري أن تغني لي الآن، يبتسم ابتسامة فاترة..

دوماً تفسد علي تخيلاتي إنما هذا الشعور ليس له عمق أكثر من ذلك، تعلم أني اعتزلت العالم بأكمله..لنذهب إلى النوم وننسى العالم، سأظل عالقا في أعماق ذات الليل وصرخاته..

انتظر العصفور حتى الخامسة فجرا ليتفقد حاله فوق نافذة غرفته المطلة على الشارع، خرج الطفل الصغير بالوقت كالمعتاد متجها نحو مدرسته، وكان مسرعاً لأنه قد يتأخر، يتحسس كتفه إذ به عصفوره قد أتى فلم ينتبه له وهو بالقرب منه في منزله، وعندما خرج من المنزل كأنه خرج من السجن، ولم ينتبه لقطته في أرجاء غرفته تلك وعبر لهما عن أسفه، شعرت القطة بالغضب ببرودة أعصاب في حين وصل إلى المدرسة في الوقت المحدد..

واستراح عصفوره بالقرب منه في أعالي الأشجار ...

وفي لحظة إنها الساعة العاشرة، وقت خروج فتانا الصغير، وانتبه له العصفور، والتفت له وحدق في ملامحه بسعادة بالغة، وقال:

. أنت هنا يا رفيقي! واعتذر منه لأنه تجاهله صباحا ولم يحدثه..

وهو يرفرف بجناحيه ويدور حول رأسه ويحدثه أنه سعيد لأنهه قابله الآن، واخذ يحكي له عن مغامرة القطة السوداء البارحة بالقرب من المدرسة؛ حيث قام بمصاحبتها، وهي الآن في بيته، وقال العصفور:

ـــ أنت مجنون حقا، وراحا يضحكان وهما يشعران بالراحة لصوتهما المبحوح، وتنصت الطفل إلى مواء القطة حيث وجدها أمامه تنتظره في المكان نفسه..

ولسبب غريب تجهله، يشعران بالراحة معه..

في حين لم تغرب الشمس بعد، ظل الولد مع عصفوره وقطته السوداء إلى وقت متأخر من اليوم، وأبقى مسافة طويلة بينه وبين الواقع الذي يعيشه..

يجلسون بزاوية من هذا العالم بالقرب من الأشجار، كأنه يختبئ، كان يحرك أقلامه على أوراقه ليرسم مشاهد بمعنى غامض، وهما ينظران نحوه بنظرات ثاقبة لما يفعله..

كان العصفور لسبب ما مهتما كثيرا بهذا الطفل الصغير.. في تلك اللحظة كان هناك ولدان يتبعان تلك القطة وهي هاربة بسرعة خشية أن يمسكا بها..

هربت من ذلك المكان المخيف بسرعة، وانتظرت الطفل حتى يأتي وينقذها..

رأت الصبي قلقا ويبحثان وعصفزره، وعلمت أنه يبحث عنها، أرادت أن تقترب منهما لكنها متفاجئة من ضربة الولدين الآخرين وشعرت بالخوف..

لأنهم إن رأوها سيضربونها ويحاولون إمساكها وتعذيبها..

نظرات مبهمة ولحظات مرعبة، استسلمت للواقع قطتنا السوداء وراحت تجري بسرعة نحو الطفل لتجده في النهاية يقاوم تلك الحجارة التي يضربونه بها أولائك الولدان..

وهو كان يقاومهم أكثر ولكنه وحيد..في شارع فارغ لم تستطع فعل شيء سوى رؤيتهم يرحلون ضاحكون مستهزئون بالطفل لأنه يدافع عنها، هذه الصغيرة ذنبها الوحيد أنها خلقت سوداء، وهم يكرهون ذلك عرفت معنى الوحدة منذ وفاة والدتها، نظرت له وهو يتعرج في حركته وبعد أن

مسح ثيابه من الرمال، حتى رآها وابتسم بشفاه نصف ممزقة، وعين دامعة، وقلب بارد، وهو يقول:

.لن يأخذك أحد أعدك، وضمته ونامت على صدره حتى وصلوا إلى بيته..

لم يعلم العصفور والقطة لما يخفيه الفتى فقد بدا شاحب الوجه، وما يخفيه تحت قميصه الرمادي إلا عندما وصل إليهما وأخرج لهما علبة صغيرة، كان يخفي فيها بعض الطعام لهما فاندهشا لمَ يفعل ذلك! وأخبرهما أنه إن لم يخبئهما سيأخذهما الأولاد منه، اقترب منهما بهدوء تام وأطعمهما...

جلسا في مكان مخفي عن المارة لكي لا يزعجوه هناك ، وجلس على الارض وصديقاه ينظران إليه ..

ثم استأذن بالرحيل وطلب منهما عدم اللحاق به، فذاك أمره مريب..

بينما الفتى راجعا موطئا رأسه إلى أسفل، صامتا تماما وذلك الرجل يضربه بشدة، دون أن يبدي أي ردة فعل وكانت ملامح الفتى بائسة وكأنه لم يعد يشعر، كل هذا لانه سرق بعض الطعام من البيت ليطعم صديقيه ولكنهما لم يدركا ذلك إلا بعد أن اختفى الطفل أربعة أيام في البيت ولم يخرج، كان لا يحدث أحداً، تلمح في عينيه الصغيرتين حزنا عميقا، لأنه غير قادر على إطعام قطته وعصفوره، ولا يمكن أن يكون له أصدقاء حتى...

أتت ظهيرة يوم الإثنين، ويلتفت الفتى يمينا وشمالا يبحث عن رفيقيه، رآهما بالقرب من الشجرة المقابلة للبيت وراح يعتذر منهما ثم بدأ بالركض كالمجنون وهما يتبعانه وبدأ يتكلم دون توقف..

وصلا إلى مكانهما المفضل وجلسا تحت تلك الشجيرات القصيرة، وقال و الابتسامة ترتسم على وجهه:

.أتعتقدان أني نسيتكما! وأخرج قطعة من الخبز وبدأ يطعمهما..

ثم ماذا حصل؟

أتريدون أن تعرفوا ماذا حصل!

لقد ظهر ذلك الرجل أقصد أباه، و فهم الأمر؛ إن الولد لن يفهم، فلم يفعل شيئاً إلى حين أتى المساء، وجد القطة متخفية في فناء المنزل حتى أمسك بها وأطعمها سمًا فماتت على الفور، أما عصفوره فقد بقي نائما في شجرته الخضراء..

لقد تحول الفتى إلى كتلة باردة بعد ذلك، ولم يبدِ أي ردة فعل غير الصمت ولم يعد يتحدث ولا كلمة، بل لم يبكِ لان جُل بكائه استنزفه في داخله...

كتب ذات مساء رسالة غامضة غير مفهومة: "إنني لن أسامحك يا أبي ما حييت، وهذا الشعور الذي أشعر به الآن كأنني أحترق ولا أجد من يرش الماء عنّي، وكأنني نار بركان هائج يحرق نفسه.."

عن نور الشمس...

آه عليك يا شمس الصبح ودفئك على القلوب، وسحرك الذي يرسل ضوءك على الأفئدة فيحييها، إنكِ لتسكبي صمتك على النيام والأحلام، ضياؤك يشبه الأفكار في العقول النيرة، أشعّتك تشبه أفكار الفلاسفة، فما تكاد تطلع الشمس لتبلغ الأفق حتى ترى الأرض منحنية لجمالها على فيه السماء الضاحكة، لقد أشرق النهار بشروقك واختبأ الليل في ظلالهؤ والنجوم غادرت باستحياء متوردة الخدين، أنت يا شمس راية قد علت في سمائي، أنت وحدك تدركينِ ماذا فعل الليل بالحياة ، هناك استقلت عن مشاعر الليل وأصبحت منفردا في خلوتي أجلس على ناصية الحلم ، حيث ثمة كلمات تنتظر أن تصبح صوتاً، تصبح لحنا آخر، لكنه الصمت يأجج في قلبي بركانا، في لحظة تصعد روحي وتتخذ مقعدا من آخر طبقة صمت بضحكة سيئة لتسترق الشهيق..

كف عن الضحك يا هذا أرجوك، أود إخبارك بأنك مخادع، أسرارك إرمها لي، اجعلها تسبح بين أفكاري أنت روح أخرى للسماء، وكأنك باب من أبواب السماء فتحت لما أشرقت، كأنك منفذ من منافذ العبور ، الكلمات تملأ جوفي، وقد استحالني الخيال في أمواجه و شواطئه يجر القلب جرا كأنه زورق النجاة وما هو بنجاة، وكأنه سفينة بلا مجداف، بديع الصنع لكنه صنع لتقاوم الخيال، أمواج الأبدية ترمينا في نور الفجر الذي لا ساحل ولا شاطئ له، بل فضاء شاسع يخيل لك من شدة جماله أنه جزيرة تلوح لك من بعيد ، اقترب ومن بدون إرادة منك، أنت وصلت فلا تحزن هنا لا مكان للشعور، ولا العواطف ولا الأحاسيس ، هنا الأرض أرضك...

ورقة خريفية...

ورقة سقطت من أعلى الشجرة في هذا الفصل الخريفي الشتوي، يابسةٌ خالية من الحياة تخلت عنها أمها، نستها تقاوم الرّيح من غير جدوى.. داست عليها الأرجل واضمحلت وربت وانتهت حياتها...شموع بيضاء صمّاء تسمع أنين الغرباء تحاول سرقة بعض الاصغاء لعل أحدهم يشعل قناديل المساء، بلا أمل تشارك في ثورة الجفاء على بعد ميلين من الخواء، ثم تستنجد بالنار لعلها تكفكف عنها بعض دموع الغرباء ...أصغي لأنغام، وحده الليل يعرف سر قوّتي..

لم يتعبنا يباس الرّوح بقدر ما أتعبنا جفاء الأيام وقسوة الليالي..أحببنا الحياة حتى أتعبتنا، غابةٌ من دخانٍ ورماد لم تكن شيئاً سوى أن روحنا قررت أن تعلو مثل السحاب، فاحترقت واندثرت، وأتت نسمة جائرة من أقصى الشرق.. ما نفع الكتابة إذا لم تجد قارئا لها!

وما نفع الحياة إذا لم تجد محبا لها ..!

ومانفع الأوراق إذا لم تجد راسما عليها ..!

هذه الأفكار لا صدى لها ولا عليها، لغة قوم خلقوا بها ومنها ولا تجد ناطقا بها، ويزعمون الثقافة بنطق غيرها، حينما مددت يدي وجدت الظلام ممسكا ومتمسكا بي، وبعض فُتات أفكار وقليل من حبر الليالي المتبقي نرتوي به والكثير من الصمت البليغ، نظرات مبهمة أضجر منها في لحظة..

نظرت في داخلي فلم أجد سوى الرماد، والكثير من الليل الذي لم أعشه بعد، وملامح البرد، وقليل من ثلج لم يسقط بعد على مدينتي، والكثير

من الأفكار التي ترفض فكرة خروجها إلى الواقع..فهي لا تصلح حتى للحب أو التعب...

وأمكنةٌ حائرة، في طياتها غائرة، في حياتها سائرة، تركها الراحلون في عجب أفعالهم سائلة..وما هي الإجابات قانعة، ستطوى الذكرى مع الذكرى وتبقى الليالي مجرد حديث لم يشفَ منه السقيم..

قلت لليل كيف تحمل معك الودائع قال:

ـ دع الأشياء تبحث عن معانيها في داخل أعماقك، واترك ذاتك لتغوص في بحر هجيج..

وسألته:

ـ أمازالت أيها الليل تعبر من جدران قريتنا ومن حائط بيتنا! وهل مازالوا غارقين في سباتهم غير آبهين لدفء أزقة شوارع قريتنا الطينية..!

قال:

-لا عجب، إنهم كذلك..

ثم أجاب:

ـ لعلي أنا أخفف عنهم مواجع النهار، وأقيهم برد الصّباح، وأنسيهم ذكرى المساء، وأنهم قضوا ليلة أمس بلا عشاء ولا دفء ولا إيواء..

قلت:

-للاغتراب معانٍ كثيرة، فأي واحدة منها هي أصدق وأفصح..!

قال:

- أتعرف معنى الاغتراب! ولم تدرك كم من صبي بلا حذاء يلبسه ولا ثياب تدفئه..!

تعزف الجمرة في صدري لحنا مختلفا يا عمّ..

كلام جريء...

قد يحدث أنهم الآن يسيرون في الشارع مستمتعين بأضواء السماء، منهمرين في ضجيجهم،والتحيات اللامجدية، بينما هو في ركن بعيد يكتب رسائل لا منتهية ويذكر فيها أسباب انتحاره..

أيام تمضي، وليال تعبر، وفضاءات ندية وسطور تجابه اللحظة، ورفات حلم أخير..

وذكرى آذار الجديدة والقديمة، ورداءة الحروف ومقاصد الراحلين وحنين فوضوي، تواضع على أرصفة المارين وتهدج الصوت المنسي ورجفة قلب كان بالامس زاهرا واليوم رماديا، وزيف الحقيقة، وظلام الأفق، وشحوب المساء..توسل الدموع، وشهقة العيون، ووصول الشتاء، وخريف اخر يستوطن القلب، مواجع لا تنتهي، وشرود الذاكرة، وتشتت الأماني، وانتهاء الغد بالنسبة للأمس، آمال تحاصر الخيال، وعذاب التوحد والانطواء، وارتكاب مجزرة الصمت، درب الحنين، تضاريس خادعة وطن قاتل تنهيد لا منتهٍ، وبعض الأشياء من الخوف والخيبات، دموع أضجرها الألم، دليل ضائع، كوابيس غير منتهية، وشكل الخجل الحقيقي، اغتراب في وطنك، ومأساة النهاية قبل النهاية، الموت الأصغر (النوم) الموت مطلق الارتياح، وفي الأخير جسد خان صاحبه حين سقط وكلمات ركيكة لا تصلح للتدوين..

كنت بطريقة مازلت أجهلها أسمع همسكِ من مكان ما في قلبي، تواصل الحديث خلف نسيج عينيَّ داخل خيالاتي وكأنك اتخذت منهم خريطة نحو عالمك، كلانا نستمر في التّحديق في العابرين ومن ثمَّ يحدث التلامس الروحِي أنك مستوطنة في داخلي..

كانت تنهمر الكلمات من جوفي في كل ليلة أنزوي فيها إلى ركني المعزول عن العالم، وكانت ليالي الشتاء الماطرة تزيد من برودة الطقس، ويدايَ باردتين، وكنت اتغرقُ في الأوراق، تبتلعني دوّامة أفكاري إلى أن يحل الصباح وتشرق شمس الأمان ..

هناك عالم في البعيد يحدث فيه اندماج الأرواح هي حكايةً لا تنتهي...

رمقني القلم مرة بنظرة وقال :

يا ذبيحاً لم تبهره لمعة السكين، أرح يدك ..

تصطف في مرايا الأيام أحلام مرمية، وأجزاء منسية، واشباحُ ظلال كلّ وجوهها وروحها أنا..

وكل روح صدى انعكاس آخر لم يكن قد بدأ بعد..

مرَّ الليل من هنا باحثا عن مشنقة أبدية..

في المستوطن الواسع للروح، والحقيقة الصحيحة هي أن أعمارنا قصيرة، وآمالنا كثيرة، ولياليا أثيرة، وصباحاتنا عسيرة..

ابتسم يا هذا، قد أكون محطتك الأخيرة، وأنت بحاجة إلى تلك الابتسامة، فإنك للموت ضجيع ذات يوم..

فتى القرية...

كان ذلك الشـخص يئنُ أنينا، وكأنه لحن من عالم آخر في ليل حالك الظلام ..

سألته:

. أين تسكن! والى أي طريق أنت ماضٍ!

فقال:

ـــأسـكن في ضـاحية بعيدة في قرية صـغيرة، تبعد بضـع كيلومترات عن المدينة؛ منطقة يسـكنها الصـمت في كل أرجائها فما يفهم الحُداث سـوى الليل، الصـــمت والكثير من الظلام، والعتمة وقليل من ضـــوء النجوم، وطفيف من ريح بـارد، تلك البيوت القليلـة تجـاوزت هـذا الليـل بنجـاح أهلها منذ القدم نائمون ولم يستيقظوا بعد ...

ضاعت آمالي وأحلامي كقطرة الندى التي تبخرت.. وخفقة الصباح الذي تنكر وارتحل، أصـــبحت كلحن قيتارة مكســـورة لحن رديء ، لابد أن القدر هو السبب..

ويظل هكذا مكسور الجناح، لا حلق مثل الطيور ولا مات ميتة الشرفاء ، قلبه يعزف لحنا بائسا لا نغمة فيه ..

ويظل يرســـل أفكاره إلى أن ينهكه التعب وتخور قواه ويضـــعف بصـــره فيغرق في نومه...

وجدته ذات مساء في الطريق حائرا، شاحبا.. يجلس متأملا السماء، شيء ما كالحلم الذي طال انتظاره ..

قلت له: يا غريب النحلة ما الذي تفعله هنا..!

قال: أنا في طريق مجهول أبحث عن نفسي، وبعض ما تبقى مني أو ما تركوه مني.. دعني أخبرك الحقيقة، مازلت أمضي بلا وجهة إلى أين سأصل لا يهم، ما هي إلا لحظات ثم تلاشى كل شئ كالشمس في المغيب، كان وهما، ذلك الحطام هو شيء من روحي وكان صوت انكسار الروح مسموعا بمثابة عناق بين عاشقين التحما في ضمة لا وهم ولا حقيقة..

ربما سيبحثون عن بعضهم في زمن ما، خالية من الضوء أرواحهم أولائك الذين لا يكتبون، ستظل مليئة بالانكسارات نفوسهم، أولائك الذين لا يقرؤون وعقولهم لم تجاوز بعد منعطف الحياة، أولائك الذين لا يفعلون كلا الأمرين، هذه الحياة عبارة عن مسرحية لا نحبها ولم نكن نرغب بحضورها، نخوض أيامها، تذرف السماء دموعا حين تتثقل السحب، فتهطل على الأرض الميتة فتحييها، وتنمو تلك البذور زرعا فتنمو وتحصد وتصبح الفتلة غابة عظيمة، هكذا كلماتنا وحروفنا نصرخ في داخلنا فتستيقظ ذكرياتنا، فتهطل دموعنا كلمات في القلب لننمو في عالم اللغة أفكارا وكلاما...

صرخة عجوز...

بيت مهترئة جدرانه، يكسو الذهول حيطانه، تصغي إلى العابرين والمصغين إلى همسات الكلمات، تتوجس من خيفة المارين من هنا..

لا فرح هناك فالعقل عاجز عن احتواء الفرح في زمن الحرب، قالت الجدران: تسكنني الرهبة في أحلام الصغار ولا أدرك فحواها، وتنزف مني خواطر لا يسعني احتمالها في داخلي، يتبعني الليل اينما حللت، وذلك المسمى أملا سرقته مني الحياة الرمادية والأمكنة المنسية، وعن صبح لم ترتضِ له الليالي أن يحل، رحل أمس وأتى الغد، ومازال القصف مستمرا ولم يبق لنا مأوى، وهذه أوراق كتبت عليها أحلامي قبل أن تصبح الجدران واهنة، وأقلام منسية فوق كومة أفكار، وكأس من وحي الخيال فارغ نصفه وذاكرة تتسرب من كل مكان، أتى الصبح ببريق شمس وضياؤها خاو وحائر أيضم جراحنا أم يزيد من عمقها!

صباح لونه شاحب، يتعب ليلنا أينما ارتحل باحثا عن أمل على طاولة سراب، وراء نافذة البيوت أموات لم يسعفهم الحظ أن يعيشوا، اخبروهم أن العرب مازالوا يبحثون عن حلول، وراء الباب خريف من عام الستين لم يمت بعد،اوراقه تئن أنينا..

كلحن في لحظة جنائزية، في القلب صحراء تحتاج أن يهطل المطر عليها لعلها تنبت، ورؤى تتداعى من وجع من الشتاء الماضي، والكثير من الأسئلة تدور حول أطياف الذاكرة، خارج الباب معارك طاحنة، وداخل البيت رداء لامرأة كانت تجهز جهازها لتأخذ حريتها في زفافها..

وفي الأفق حلم تم. اغتصابه أسميته حلما ضائعا ، لا أبجدية لنتحدث او لنرفض القدر أو لنعاتب السنين، من البريء منهم ومن القاتل! كلهم

يتشابهون في الملامح كيف نفرق بين عدو ومصلح! من حقنا ان نستعير الحزن من الجدران لنرميه خارجا لأن حلمنا لن يكتمل والآن لنبحث عن صوتي فلا صدى له منذ ستين عاما، ثم ماذا ..!

هل نتصالح مع القدر! هذا ليس يجدي، فالخضوع يؤلمني أكثر، بدأت الحياة تفقد بريقها وشرعت الأشياء المهمة في فقدان معانيها ولذتها، لقد التهمني الوقت، وغيرت ملامحي ظلمة الشتاء، ولا نور هنا لأنهم سرقوه منا، نتنصت على السكوت بخطوات ثابتة، تصادر عن ذكراي صور رمادية أخشى أنها لي ولم تعرفني، تلك الملامح جميلة لكنها راحلة مهاجرة تحت سماء جافة وأرض قاسية، لم يعد العمر يكفي لصنع الأمل، ولا شمس آذار كافية لتأليف البرد..

رحل عام ثانٍ بعد السّتين ولم يبق لنا سوى ركاكة كلمات وبضع ليال، و شيء من قدر وصبح من بلور ،نصف نهاية ذاكرة مثقوبة وأفكار نصفها مات، على الطاولة خبز وصحن من زيتون كانوا يرمزون له للسلام لكن البشر وحوش بريئة، ورغيف خبز يابس منذ عام النكبة أو يزيد، وماء حائر بلونه لم يتغير، وقداحة وسيجارة وأكياس من طحين، هذا ما كنز الناس وقت حصادهم، وشمعة في يد الصغير أطفأتها رياح الليل تلك..

في الخارج شارع طويل، أطول من ليلي أو نهاري، ضوؤه خافت، بقايا أحاديث في مقهى الرصيف، وآثار عطر لشابة أوهموها بطول الأمل، لا فرصة لنا لاغتيال الدقائق والليالي يا هذا، ثم قال: التمني يؤلم ويتعب أكثر من الخذلان، ثم ما فائدة خطاباتكم واجتماعاتكم! تلك بطولات زائفة، تواضع وخذلان، شرف ضائع مابقي لكم سوى رداء الحياة..

من حقي أن أكرهكم يا حكامنا، اكتشفت أن المرء يعيش لأجل اشباع غريزته وفقط، من حقي أن أستعيد حريتي ومواطن أحلامي. .

كنت يا جدران تحمينا ويا وطن كنت أمنا الحنون، كنت قادرا على ابتكار لحن آخر غير هذا، كان قلبي أكثر دفئا، وابتسامتي تبدو عليها الحقيقة وغير زائفة، كنت أعرف كيف أتأمل السماء، والأرض، والسحب، والقمر، والنجوم والفضاء، أما الآن فنحن ننظر إلى الستماء تذرف قاذفات من نار..

كنت أعرف كيف أصطاد الحياة وبريقها وجمالها وزخرفتها، كنت أدرك كيف أصنع الجمال في قريتي، كنت قادرا على استراق الهمس من أحاديثهم العابرة ..

كبرت يا وطني ولم أعد قادرا على الحنين والشوق يقتل كياني، يا وطن لقد أصبح للأمان معنى آخر، لقد سرقوا شرفنا..

رحل عام آخر، ومازالت آهاتي تدوَّن على الجدران، ولم يبق لي سوى نصّ لم يكتمل، وجزء من الذاكرة، وليل ونجمتين...

جاء الصباح على هيئة طاغية يتلذذ بطغيانه..

يحمل سكّينا وأنا كنت جُبنا، ويحمل سيجارة وممحاة محا ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا..

هناك أصداء في البيت المجاور لا طعم له..

في يد الصغير مغلف من رسائل كان لابد أن يوزعها لأهلها خائفا ومرتبكا، وأنغام أبيات شعر للص حاول أن يرتدي ثوب الدين..

حائط بلون رمادي باهت اللون وحيد كغراب منبوذ، على يميني هزيمتان وأربع خيبات، وليال من ذلك العمر الطويل، من حقّي أن أتمرد، لكن على ماذا نتمرد! لم يتركوا لنا حتى الطبيعة لنتمرد عليها، قالت الجدران: من حقك أيها العجوز أن تدافع عن الجائعين..

ظل الخراب والفراغ وكلمات غير مفيدة وحسرات وذاكرة

رحل عام وأتى عام ومازالنا نتألم..

رحيل امي...

في رحيلها أصبح البيت موحشا، وسرت رائحة الرحيل في أرجاء المكان، بدأت عبارات الألم تتفرّع في داخلنا، ركبت سفينة المغادرين من هذه الدنيا، افترشت التراب حتى الطيور لأعشاشها رحلت، وأضحى الليل كئيب الحال، ورائحة الغربة تفوح من كل مكان، الحياة سلبت مني أمي في بداية رحلتي للبحث عن الفرح أصبحت وحيدا لا يد تمسك ولاعين تدمع معي،وصُيّرت أصوات الضحكات شهقات..

أسأل نفسي: لماذا عليهم الرحيل..!

فتجيب نفسي: أتعترض لقدر الله..!

استغفرت وقلت: ومن يفعل ذلك غير الجاهل الذي لا إيمان له..!

مازال طيفها يمر بجانبي، وينادي، يمسكني، لم ترحل أمي فروحها تسكن هنا في كل مكان..

تركتني أمي كدمية جوفاء ما نفع معها البكاء..

ناديتها وقلت: يا أماه، أرى اللهفة في عيونهم، والمحبة تشع من عيونهم، وانا ملامحي كادت تكون سحابة سوداء، إني أراقب دموعهم الزائفة، الام هي الحياة إن فقدتها فقد فقدت كل شيء، المرأة في الوطن هي الحارسة، وهي الأم، وهي المربية، إن أهملتها أهملت الوطن، وإن رعيتها رعت لك الوطن، وفي قت الشدة تأخذ مآخذ الرجل..

إني أرى المرأة في وطني كالزهرة، نظرتها كغصن وأوراقها، فإذا أحسنت إليها طرحت غصونها وحسن منبتها الاجتماعي، وإذا أهملتها لا تصل فروعها إلى أسفل الأرض، وأوراقها تبدأ بالذبول، والماء لا يصل إلى

روحها، ألا إن المرأة هي الوطن مادام أحدكم يصـــل أمومة اولاده بتاريخ أمه، وإنكم أيها الهائمون الذين تنقصـــون من قيمتها كأنكم اغتصـــبتم نســـاء الوطن، وأنتكم كالعدو الذي أخرجناه قبل ســـتين عاما، ألا فإنني أعدكم من الجاهلين الذين لا علم لكم ولا دين وهل لكم عذر يا أشـــباه الرجال مما عن شـــهوات نفوســـكم، ما لكم تنزلون منزلة الكافر في أهله ليس له إلا شهواته..!

غريبة غريبة...

ثم أفاقت كلماتي وسألتني: ألم تحن ساعة الرحيل بعد! ألم يحن موعد نزيف الذاكرة بعد!

ثم قالت: سيهدأ الربيع، ويحنُّ الخريف، ويغتال الشتاء ما تبقى منا ومازلت أنت تنتظر رسالتها!

و بدأت البراكين بالخمود، والرعب بالسكون، والنرجس بالذبول، والأقبية بالنزول، وهاهي تلك السنون تمضي على مشنقة الأطياف ...

سيولد الغد مع إشراقة شمس، وبريق ليل، وولادة فضاء مسموم بالذكريات والانتكاسات وخيبات مجيدة فقدناها، وهاهي بحيرة عقلك في محيط جمجمتك، ولادة فضاء من الأمس، رحلة الكيان نحو متاهة الحياة بالليل تنمو أطراف المدينة، ظلام الزمن قاهر، العتمة في كل شيء ولا شيء أيضا، يتردد المطر عن الهطول لحظات، يهزم النورَ رائحةُ البرد، يكتمل المشهد السرمدي..

للحنين صدى مربك، وذكرى يعجز شريطي على نسيانها، لم يتبق من الألم شيء، سنغادر إلى عالم آخر، نحو كون وفضاء مغاير ما زاره الخيال يوما..

نحلم بغد آمن، وننفض غبار ملامح الرهبة فينا، فضاؤنا صدى لا إيقاع فيه، ولا صوت ينبعث، ولا ليل يحلّ ولا طيف من أطيافنا...

الصمت رحلة أخرى، وفُتات الوقت، ورشفة قهوة باردة، وبعض قصاصات الورق، وألوان غير بهيجة من رمادي وأسود، ولوحة غير مكتملة، وغراب أسود يحوم فوق رأسي ينقر بمنقاره الحاد زجاج

نافذتي، السماء لا لون لها فقدت هي الأخرى بهجتها، النبض ينتظر الربيع ليزهر ومازال الخريف يقتل من دون جدوى، الأمس لم يغادر بعد والغد لم يعلن بدايته، شجرة الرمان لم تعد تصغي إلي ، الخفافيش لم تعد تستيقظ ليلا، اكتشفت في نهاية غدي وأمسي أن قوافلي قد أخطأت المسير وانسحبت من خيالي تلك هي الأوهام..

كان الشتاء يعزف لحنا لم نكن نعلمه، كان الشتاء مهد الذكريات، وأخبرني أنها لم تحن ساعة الحب بعد، وهذا الكون مازال يرى الرمادي على أنه لون طبيعي، ثم أفصح قائلا عن ما يجول في داخله: رأيتها جميلة الوجه كطلعة الصباح، مشرقة كشروق الشمس، ملتهبة كشعاع الظهيرة، راقية المنظر كالغروب في تأنقها، وفي داخلها أشد ظلمة في ليل لا قمر فيه ولا نجوم، يترقرق فيها نور الحياء ويجول في فكرها العلم والدين، ولم يكد يراها حتى خطفته بجمالها فإن لها عينين واضحتين كالشمس تخطف قلب من لا قلب له، ضاحكة أو عابسة ليس هناك أدنى شك أنها خلابة..

ذات بريق شاسع ترمي بنظرات عابرة، امرأة ساحرة وماهي بالحب ساحرة، فهي تزرعه أينما حلت، وأشد ما يبهج القلب صوتها الذي بالحزن قد تطرب مع كل هذا استنجدت بفلسفتي البلهاء في الليلة الظلماء، فما وجدت سوى الحطام في عمقي الذي لطالما تغنيت به ولحّنت...

صدى كلامي...

صـــدى كلامي لا يصـــل إلى عمقهم وعمقي لا تراه عيونهم، صـــيف هو صـــيف في تعريفه، ولونه كلون الخريف بطبيعته، شـجرة لم تســـلم لعاصـفة الأمس، وموجة برد أهلكت أغصـانها، الحياة أجمل من أن لا نعيشـــها، والموت أقوى من أن نهزمه، لصـــدري نبض غريب وإيقاع مختلف، كم من فكرة تســـتطيع أن تشـــق البحار إلى الضـــفة الأخرى لتغادر مســـتنقع الذكريات! دموع خربتني على قدر ما خربتها حتى غدوت أنشج للأفراح وأبتهج للمآتم..

ثم أخبرتها أن تتوقف عن الانعكاس كالظل في المرآة في كل ما أحدق به وأراه، شـابت الحروف في فمه كقافية في قصـيدة الشـاعر، يهرول نحو أوراقه كعداء جمايكي جامح يلتقط أنفاســـه ليجد نفســـه في حضـــن ورقه..

تفحصـــت وجهي في المرآة، كنت أحاول التعرف عليّ و لم أنجح في ذلك، ثم إن هذه الحروف ليست سوى دموع لم تُذرف، ونبض لم يسمع، إنكم تقرؤون ســـطورا متناقضـــة جدا ولم تطلب النجدة كما كانت تفعل سابقا..

حينما تشـــعر أن الأفكار تبتلعك فتضـــطر إلى تغيير مقصـــدك، وتغيير شـعورك، ويذبل فيك كل شيء جميل، ثم أخبرتني يا هذا لقد كنت دائما أتسائل: ما لون الحزن الدائِم في كلماتك..!

وما المغزى من كتابتها وما المراد بها!

ما شكل روحك المُنكسرة يا صديقي...!

سأظل أكتب لأن صوتي لا يمكنه تجاوز عتبة الباب، تتبعثر ذاتي كأوراق الشجر داهمها الخريف من كل مكان، ويتردد صدى كلامي، تتصارع أفكاري في داخلي كتصارع أمواج البحر، أسير في درب الشّوق والكتمان يقتل ما بقي من أرجائي، شتاء ماطر، وربيع زاهر، و سماءٌ باهتة اللون فاقدة الوجه البديع، أرض متعطشة للارتواء وفضاء فاقد للضياء، إنسان في الذنوب غارق وفي الليالي يعكف للرجاء، ثم عين دامعة، لم تجد لها يدا تمسح عنها الانطفاء، قلب زاهر وعقل شاغل وليل حائر وصباح غائر ، طائر الأمس غائب، وأسراب غربان غادرت..

ويتلفت الصباح لي ويسألني: هل كبرت ..!

أم أن روحك شاخت..!

ليتني أستطيع التمرد على الطبيعة فأحلّق بلا جناحين في سماء وأرض وبين جدران الفضاء..

أصنع قاربا من وهم يأخذني إلى بلاد بعيدة أعيش لحظة بلا أي أمنيات..

بالأمس...

وحام الأسى فوق رأسه كما تحوم الطيور الجارحة فوق الجثة التي صفعها الموت..

بلغ بحيرة تتقاذف أمواجها وتتسابق في ما بينها، جلس على مقربة من جرف البحيرة يتأمل فجالسته الذكرى وانتشرت صحفها على مرأى عينيه، تلك رواية الماضي ومآسيه، وحبر الحاضر وما يواسيه غير النفس تسلي نفسها بالآمال، يتلو الدموع شهقات القلب تحجب عن روحه ظمأها واللهفة إلى الحياة تزيد من معانيه تعيد إلى قلبه أيام كان ينسجها بعمق يديه..

كنت كالطير معلقا ما بين السماء والأرض، وها انا في الأرض مكسور الجناح لا أقدر على شيء ، كنت بالأمس سخيّ اليد أغدو كما تغدو الرياح وها أنا سجين في مجتمع كل ما يهم مرضاء شرائعهم..

أين السهول الواسعة وشرائعها! أين الليالي الزاهدة..! لم يبق لي غير الذكرى أستأنس بها ..

بالأمس كنت غنيا بصحتي، واليوم فقير بمرضي، بالأمس كنت فقير مال وغني سعادة، ما كنت أحسب الطمع بالمال يزيد تعاستي..

يسأل نفسه: أهذا الذي عليه يتنازعون!

أهذا الذي يبتاعون الحياة لأجله!

من يعطيه ذرة جمال مقابل قنطار ذهب ..!

أيقظ سراج الحكمة في قلبك، فابتسم لأفكاره وتأملاته ابتسامة الزهرة الذابلة التي أحياها المطر..

الفهرس

ضجيج صامت..... 1

العزلة وطن 6

الأمُّ هي الحياة..... 7

لقاء صدفة..... 9

السّجينُ والقاضي 10

السجين رقم 67..... 17

المتشرد..... 20

العنوان: براءة..... 24

تأملات..... 27

تحت سقف الليل 29

خلف الجدران..... 32

خواطر .. فتى..... 35

ذكرى الأيام..... 38

رجل خائن..... 40

رسائل..... 44

روايتي المنسية..... 46

الثلاثاء في..... 47

رحلة قلم..... 49

ضجيج قلم..... 51
ضُعت هناك..... 53
غدروا بك يا صديق..... 55
غريق بلا ماء..... 56
صرخة وطن..... 57
في الظلام..... 60
في اللغة..... 62
في الليل..... 65
في عمق الروح..... 69
كلام..... 71
لقاء في مدينة الحب..... 72
مغامرات طفل صغير..... 76
عن نور الشمس..... 84
ورقة خريفية..... 85
كلام جريء..... 88
فتى القرية..... 90
صرخة عجوز..... 92
رحيل امي..... 96
غريبة غريبة..... 98

صدى كلامي..... 100
بالأمس..... 102